

نكل قوم تاج ، وتاج هؤلاء القوم : الشبلي
« من كلام الجنيد »

تاج الصوفية
أَبُو بَكْرٍ الشَّبْلِيُّ
حياته وآراؤه

الدكتور
عبد الحليم محمود

الطبعة الثانية







بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

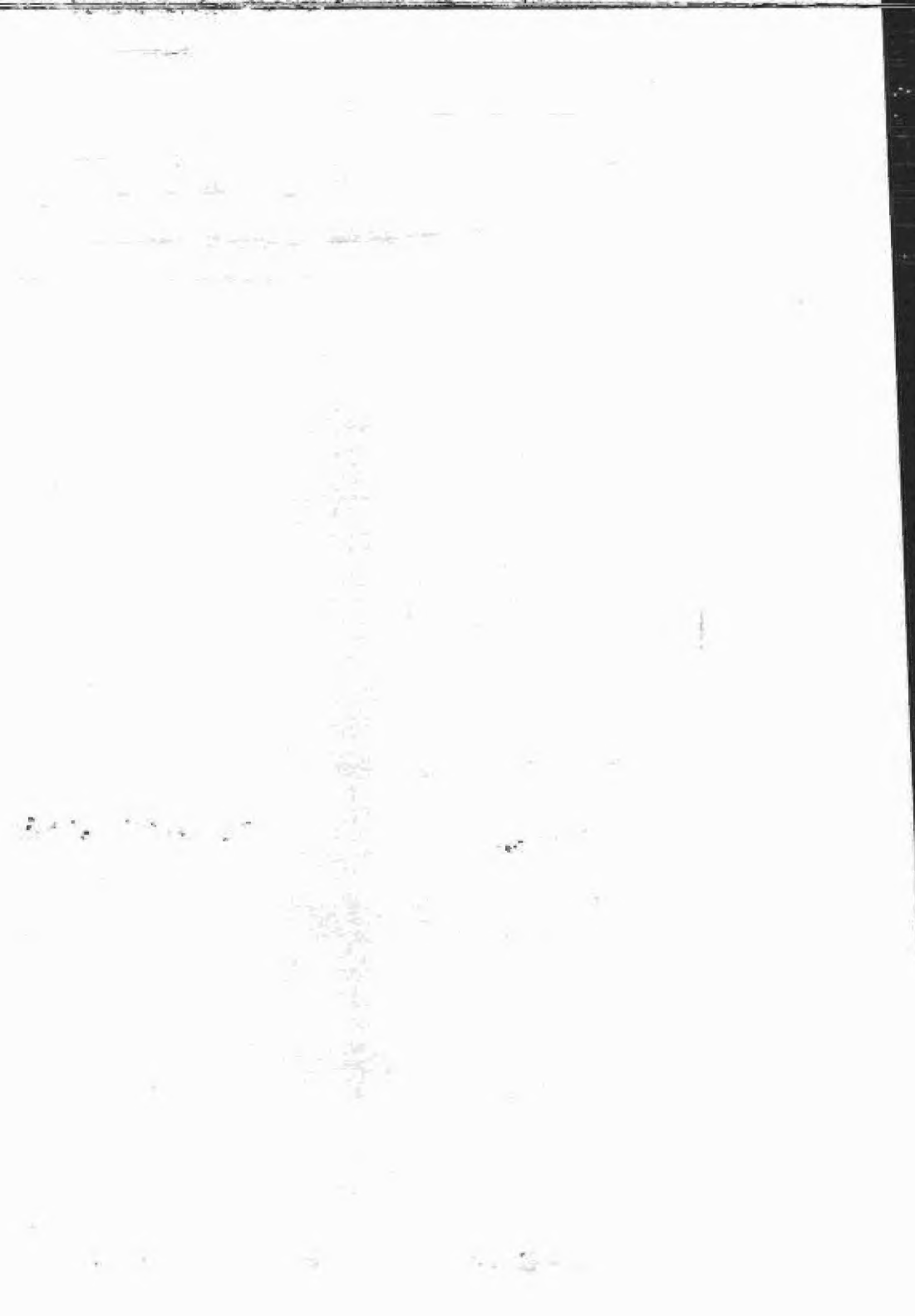
الحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام على أشرف
المرسلين وإمام المحبين سيدنا محمد وعلى آله وصحبه ومن
اتبع هديه إلى يوم الدين.

﴿ربنا آتنا من لدنك رحمة وهيئ لنا من أمرنا
رشداً﴾.

«اللهم لك الحمد، يا ضياء السموات والأرض، ويا
بهاء السموات والأرض، ويا قيوم السموات والأرض، ويا
نور السموات والأرض، بحق أسمائك عليك، وبحقك
عليك، فلا حق أجل منك عليك، وبحق ما أنزلت، وبحق
من جعلت له فهماً فيما أنزلت. يا الله، ويا من لا سواك
الله:

صلِّ اللهم على محمد وعلى آل محمد».

[من دعاء الشبلى]



مقدمة

إن لكل صوفي طابعاً معيناً، ولكلامه مذاقاً خاصاً.

والصوفية - وإن كانوا جميعاً يسيرون إلى هدف واحد، وغاية لا مذاهب فيها، هي: التوحيد - فإنهم يختلفون في الشكل، ويتفاوتون في الطريق. ومن هنا كانت الكلمة المأثورة:

التوحيد واحد، «والتوحيد هو الغاية».

والطريق إلى الله كنفوس بنى آدم.. إنها تتعدد وتتفاوت..

وكثير من الصوفية ساروا في طريق الحب، وقد اشتهر منهم البعض في هذا الطريق، والناس جميعاً يسمعون - في هذا المجال - عن السيدة رابعة العدوية - قدس الله روحها - ولكنهم - في كثير منهم - لم يسمعوا عن الإمام أبي بكر الشبلي.

والإمام أبو بكر الشبلي صورة جميلة لزاويتين هما من أهم زوايا التصوف - إن لم يكونا أهمها:

أولاهما: حب الله تعالى، ولقد سار فيه الشبلي على طريق مستقيم: إنه أحب الله إلى درجة الهيام، واستولى عليه الحب فكان له السلطان والسيطرة في كل ما يقوم به «الشبلي» من عمل.

لقد هام «الشبلى» في رياض الحب، وأخذ يتحدث عنه ثراً وشعراً، وشعره في هذا المجال جميل مؤثر. وما كان يكتفى في التعبير عن عاطفته بشعره هو، وإنما كان يستشهد بشعر الآخرين في مختلف المناسبات، وسيرى القارئ الكثير من هذا الشعر في أثناء الكتاب إن شاء الله تعالى.

بيد أن هذا الهيام الذي كان يستولى أحياناً على الشبلى فيملك عليه جميع أقطاره حتى لا يرى ولا يحس ولا يسمع إلا ماله صلة بمحبوبه، ولا يشعر بشيء إلا بما يعتمل في صدره من حب الله تعالى...

هذا الهيام المستغرق كان من مظاهره حسن العبادة، وتحقق للشبلى عن طريق المحبة ما وصفه رسول الله، صلى الله عليه وسلم، من مظهر الإحسان بقوله حينما سئل: ما الإحسان؟ فأجاب:

«أن تعبد الله كأنك تراه، فإن لم تكن تراه فإنه يراك»

كان الشبلى متعبداً كأحسن ما يكون العباد المحبون.

وسيرى القارئ شيئاً من تفصيل كل ذلك في الكتاب إن شاء الله تعالى.

أما الزاوية الثانية - في صورة الشبلى الجميلة - فإنها زاوية: التوحيد، والتوحيد هو المذهب، والتوحيد في حياة الشبلى كما يعتبر المذهب والغاية، فإنه بنظرة أعمق في حياته - يعتبر أيضاً طريقاً، إنه حينما سئل عن التصوف قال:

«بلوّه معرفته، ونهايته توحيده!»

ولكن.. ما هذا البدء؟ إنه معرفة الله واحداً، ومعرفة ما يجب لهذا الواحد من فروض وواجبات، وما يستحيل عليه سبحانه، إنه معرفته منزّها عن الشريك والند والولد والصاحبة.

وإذا كانت النهاية «توحيد شهادة»: «أشهد أن لا إله إلا الله»، فإن البدء «توحيد معرفة بما يجب وما يجوز وما يستحيل، ومعرفة بما يجب أن يقوم به الإنسان من فروض، وما يجب أن ينتهي عنه من منهيات.

إن البدء توحيد معرفة مكتسبة من إخلال كتب الدين، والنهاية توحيد شعور وحال وذوق: وكلاهما توحيد.

وعندما يصل الإنسان إلى توحيد الشعور والحال، فإن التوحيد والمحبة يمتزجان، فيكونان وحدة متكاملة هي: توحيد الحب، أوجب الواحد الأحد. وامتزج الحب والتوحيد في حياة الشبلى، فكان ذلك تاجاً على رأسه، وصدقت كلمة الإمام الجنيد:

لكل قوم تاج، وتاج هؤلاء القوم الشبلى!

ومن أجل ذلك: من أجل هذا التناسق الجميل بين الحب والتوحيد كتبنا عن الشبلى!

والله نرجو أن يهدي بهذا الكتاب، وأن يهدي له، وأن يحيط الشبلي
بشأيب رحمته، وأن يتفضل عليه بحبه.

إنه سميع قريب مجيب...

الفصل الأول

حياته

حياته

من الشخصيات من إذا نظرت إليه، أو قرأت له، جذبك منظره، أو جذبتك القراءة له إلى حبه.

والشبلى من هذا النوع الذى يجعلك تحبه حتى ولو لم تتفق معه فى بعض الآراء، والصنعة البارزة فى الشبلى التى تجعل كل من يقرأ له يحبه، ويعطف عليه هى صفة الحب عنده.

لقد ملك الحب عليه أقطار نفسه، وشغله عن كل شىء سوى محبوبه، لقد هام فى رياض الحب، وتاه فى بیداء الحب، وانغمس فى بحار الحب، وبقى فى اللجة إلى أن وافاه القدر المحتوم.

إن الحب مركز الدائرة فى حياة الشبلى منذ أن أحب، إنه طابعه ومظهره، إنه ظاهره وباطنه، والمحبة، كما يقول الشبلى:

«صراط الأولياء».

أحب الشبلى بكل أقطار نفسه، ولم تتسع نفسه لغير حب الله، وكان هذا الحب يلهيه عن الأكل والشرب، وقد صرفه عن الزينة والملبس الأنيق، ولم يكن فى خياله ولا بين عينيه غير محبوبه.

ولكن هذا الحب سار في الطريق المستقيم:

لقد كان ثمرةً لجهاد في العبادة لا يفتر. ثم كان ثمرةً جهادًا في العبادة لا يفتر.

والجهاد في العبادة، من أخسامه، الجهاد في المجتمع ليستقيم، ليعيد ليحب.

ولقد جاهد الشبلي - من أجل المحبة - في المجتمع بساوكه، وجاهد بكلامه، وكان قدوة، وكان واعظًا، وكان مدرسًا، من أجل هدف واحد هو: المحبة.

وإذا كان الجنيد قد وصفه بأنه: «تاج الصوفية» فإن هذا التاج إنما هو تاج الحب.

كيف وصل الشبلي إلى ذلك؟

لنبدأ مع الشبلي منذ البداية.

إن اسمه المشهور به هو: أبو بكر الشبلي.

ولا نحب أن ندخل في تفاصيل الاختلاف في اسمه، ولكن نحب أن نذكر ما يقوله صاحب الوقفيات في ضبط الاسم، إنه يقول:

... «الشبلي - بكسر السين، وسكون الباء الموحدة، وبعدها لام - نسبة إلى (شبيلة)، وهي قرية من قرى (أسروشنة) - بضم الهمزة، وسكون

السين المهمة، وضم الرء وسكون الواو، وفتح الشين المعجمة، وفتح النون
وبعدها هاء ساكنة وهى بلدة عظيمة وراء سمرقند من بلاد ما وراء النهر».

والشبلى إذن خرسافى الأصل. ولكنه ولد «بـرمن رأى»، ونشأ فى بيت
عز وجاد، فقد كان والده حاجب الحجاب للموفق، وكان خاله أمير الأمراء
بالإسكندرية.

وبيت كهذا حينما ينشأ فيه ناشئ فإنه يعنى بثقافته عناية فائقة،
والأسس الأولى للثقافة إذ ذاك إنما هى اللغة العربية فى صورة مستفيضة،
وهى علوم الشرع فى كثير من العناية، ثم ينظر الشاب الطامح إلى المادة
التي يتخصص فيها: حديثاً، أو تفسيراً، أو فقهاً، أو غير ذلك.

ونشأ الشبلى وصورة والده ماثلة بين عينيه، وهذا أمر طبيعى فى كل ابن
له والد نابه.

وأخذ الشبلى يتطلع إلى المجد. واستشرفت آماله إلى الوظائف، وكان
الطريق أمامه ممهداً: فهو ابن موظف كبير فى الدولة.

وكما يسر الله طريق الثقافة له، فإنه يسر له طريق الوظائف، ووصل
الشبلى إلى أن كان حاجباً للموفق وهو ولى العهد، وكان الشبلى أيضاً والياً
على: «دنياوند»... يقول صاحب الوفيات:

... «دنياوند» - بضم الدال المهمة، وسكون النون وفتح الباء
الموحدة، وبعدها واو مفتوحة، ثم نون ساكنة، وبعدها دال مهملة - وهى

حجة من نواحي رستاق «الري» في الجبال، وبعضهم يقول: «دماوند»،
والأول أصح.

ويقول صاحب الكواكب الدرية:

«هو خرساني الأصل، بغدادى المنشأ، كان والياً بتهاوند وبالبصرة،
وكان والده حاجب الحجاب للموفق».

ولعل الشبلى تدرج في الوظائف من مدينة إلى أخرى أكبر منها أو أهم
منها، وهذا طبيعى في المتاصىب.

وما كان الشبلى في يوم من الأيام منصرفاً عن العلم، بعد أن تثقف
الثقافة العامة، ولم تشغله الوظائف عن السمو بأفقه عن طريق العلم.
لقد درس، وثابر، وسهر الليالى في طلب العلم. بل كان يحضر دروس
العلماء وهو في وظيفته.

يقول السلمى عنه:

«كتب الحديث الكثير. ورواه».

ويقول عنه الإمام المناوى:

«تفقه على مذهب الإمام مالك، وكتب حديثاً كثيراً...».

ويقول صاحب الشذرات:

«... وكان الشبلى فقيهاً عالماً كتب الحديث الكثير».

ويقول أحمد بن عطاء: سمعت الشبلي يقول:

«كُتبت الحديث عشرين سنة»

وجالست الفقهاء عشرين سنة».

ولم تكن دراسته هينة، فقد أخذ نفسه بالعزائم، فحفظ «الموطأ» عن ظهر قلب، أما القرآن الكريم فإنه لم يكتف بحفظه بقراءة واحدة، وإنما درس أكثر من رواية.

وانتهى به الأمر إلى أن أصبح علماً من أعلام العلماء، وأصبح صاحب حلقة يدرس فيها ويعظ، ويهدي بقوله وسلوكه، واستحق أن يقول فيه أبو غيدافه الرازي:

«لم أر في الصوفية أعلم من الشبلي»

وكانت له مع العلماء جولات.

مسائل من علم الشبلي

إن الشبلي مر يوماً بأبي عمران وهو يدرس في حلقاته، فلما رآه أبو عمران قام إليه وأجلسه بجانبه فأراد بعض أصحاب أبي عمران أن يرى الناس أن الشبلي جاهل - فقال له: يا أبا بكر:

إذا اشتبه على المرأة دم الحيض بدم الاستحاضة، كيف تصنع؟
فأجاب بثمانية عشر جواباً.

فقام أبو عمران وقيل رأسه وقال:

يا أبا بكر: أعرف منها اثني عشر، وستة ما سمعت بها قط.
ومن ذلك ما يقوله أبو القاسم عبد السلام بن محمد المخرمي، يقول:
سبعت الشبلي.

- وسئل عن قول الله:

﴿ادعوني أستجب لكم﴾

قال:

«ادعوني بلا غفلة، أستجب لكم بلا مهلة».

وسئل عن قوله تعالى:

﴿قل للمؤمنين يغضوا من أبصارهم﴾

قال:

«أبصار الرؤوس عما حرم الله تعالى، وأبصار القلوب عما سوى الله».

وكان ابن بشار ينهى الناس عن الاجتماع بالشبلي، والاستماع لكلامه.

فجاء ابن بشار يوماً يمتحنه، فقال له ابن بشار: كم في خمس من الأهل؟

فسكت الشبلي، فأكثر عليه ابن بشار، فقال له الشبلي.

في واجب الشرع شاة، وفيما يلزم أسألنا كلها.

فقال له ابن بشار:

هل لك في ذلك إمام؟

قال: نعم

قال: من؟

قال: أبو بكر الصديق، رضى الله عنه، حيث أخرج ماله كله، فقال له:
والنبي، صلى الله عليه وسلم: «ما خليت لعيالك؟»

قال: الله ورسوله - فرجع ابن بشار، ولم يته بعد ذلك أحدًا عن
الاجتماع بالشبلي.

ويقول محمد بن عبد الله. سمعت الشبلي يقول في قول الله:

﴿يَحْوِ اللَّهُ مَائِشَاءَ وَيُثَبِّتُ﴾

قال:

يحوي ما يشاء من شهود العبودية وأوصافها. ويثبت ما يشاء من شواهد
الربوبية ودلائلها.

وسئل عن قوله تعالى:

﴿وَالَّذِينَ هُمْ عَنْ اللَّغْوِ مُعْرِضُونَ﴾

فقال:

كل ما دون الله لغو.

وكان يقول:

«حفظ الأسرار ضوتها عن رؤية الأغيار»

ومما يروى عن أبي القاسم عيسى بن علي بن عيسى الوزير يقول:

كان ابن مجاهد يوماً عند أبي - فقبل له: الشبلي.

فقال: يدخل.

فقال ابن مجاهد: سأسكنه الساعة بين يديك، وكان من عادة الشبلي إذا

لبس شيئاً خرق فيه موضعاً، فلما جلس قال له ابن مجاهد:

يا أبا بكر: أين في العلم إفساد ما ينتفع به؟

فقال له الشبلي: أين في العلم؟

﴿قطفتي مباحاً بالسوق والأعناق﴾

قال: فسكت ابن مجاهد

فقال له أبي: أردت أن تسكنه فأسكنك!

ثم قال الشبلي له : قد أجمع الناس أنك مفرى الوقت. أين في القرآن : الحبيب لا يعذب حبيبه؟

قال : فسكت ابن مجاهد

فقال له أبي : قل يا أبا بكر.

فقال : قوله تعالى :

﴿وقالت اليهود والنصارى نحن أبناء الله وأحباؤه، قل فلم يعذبكم بذنوبكم﴾.

فقال ابن مجاهد : كأنى ما سمعتها تقط.

أما موضوع إحداث خرق في الثياب فإنه يرتبط بمحاولة البعد عن العجب والفخر أو الخيلاء أو الكبر، وما كان خرق الثوب افساداً كلياً له، وإغماً لإفساد للفخر به، وإفساد للعجب به، وكانت الناس تعلم ذلك عن الشبلي، ويفسرونه التفسير المناسب، ما عدا هؤلاء الذين يكرهون الصالحين من عباد الله.

وسئل الشبلي عن : ﴿الرحمن على العرش استوى﴾.

فقال :

«الرحمن لم يزل. والعرش محدث. والعرش بالرحمن استوى».

وسئل : ما الحكم في أنه تعالى ذم الاستهزاء والمكر، ثم فعلهما ؟ فقال :

ويخرج من سواك الفعل عندي فتفعله فيحسن منك ذاك

فقال السائل: أسألك عن القرآن فتجيب بالشعر؟! فقال:

لم أجب به إلا لنعلم أن في أقل قليل أدل دليل: تخلّيته تعالى بينهم وبين الاستهزاء، والمكر مكر منه بهم، إذ لو شاع لمنع.

وسئل الشبلي: عن أرجى آية في القرآن؟ فقال:

﴿قل للذين كفروا إن ينتهوا يغفر لهم ما قد سلف﴾.

قال:

فإذا كان الله تعالى أطلق للكفار دخول الجنة بذكر (لا إله إلا الله) مرة واحدة. أترى من واطب عليها طول عمره، كيف يمنع من دخول الجنة وهو طاهر من نجاسة الشرك؟!

وقال:

«من خرج عن ماله كله لله فإمامه أبويكر، ومن خرج عن بعضه وأمسك بعضه فإمامه عمر، ومن أخذ وأعطى وجع لله فإمامه عثمان، ومن ترك الدنيا لأهلها فإمامه علي، وكل علم لا يؤدي إلى ترك الدنيا فليس بعلم».

وجاء رجل فقال: ياسيدي كثرت عيالي، وقلت حيلتي، فقال له:

أدخل دارك: فكل من رأيت رزقه عليك فأخرجه، وكل من رأيت رزقه
على الله فاتركه في الدار؟

ومن تقدير الشبلي للعلم أن كان يقول:

ليس الكامل من يوصل كل يوم ألفاً من العوام، بل من يوصل فقيهاً
واحداً في أعوام، وفي قصة موسى والخضر كفاية لكل معتبر.

ومن طرائفه في الشرح أنه سئل عن قول النبي، صلى الله عليه وسلم:
«جعل رزقي تحت سيفي».

فقال: سيفه الله: أما ذو الفقار فهو قطعة من حديد.

وما من شك في أن الرزق تحت إرادة الله تعالى، يقول سبحانه:
﴿إِنَّ اللَّهَ هُوَ الرَّزَّاقُ ذُو الْقُوَّةِ الْمَتِينُ﴾.

ويقول:

﴿وَفِي السَّمَاءِ رِزْقُكُمْ وَمَا تُوعَدُونَ، فَوَرَبُّ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ إِنَّهُ لَحَقٌّ
مِثْلُ مَا أَنْكُمْ تُنطِقُونَ﴾.

ويقول:

﴿وَمَا مِنْ دَابَّةٍ فِي الْأَرْضِ إِلَّا عَلَى اللَّهِ رِزْقُهَا﴾.

وكان أحمد بن محمد بن مقسم يقول: حضرت أبا بكر السبلي، وسئل
عن قوله تعالى:

﴿إِنْ فِي ذَلِكَ لَذِكْرَى لِمَنْ كَانَ لَهُ قَلْبٌ﴾... فقال:

«لِمَنْ كَانَ اللَّهُ قَلْبِهِ» وأنشد:

ليس منى قلب إليك معنى كل عضو منى إليك قلوب
وتلا قوله تعالى:

﴿فَإِذَا بَرِقَ الْبَصَرُ، وَخَسَفَ الْقَمَرُ﴾... إلى قوله:

﴿إِلَى رَبِّكَ يَوْمَئِذٍ الْمُسْتَقَرُّ﴾، فلاحظوا فهم ما أشار إليهم. فقال بعضهم: متى يصح ذا؟ قال:

«إِذَا كَانَتِ الدُّنْيَا وَالْآخِرَةُ حِلًّا. وَاللَّهُ تَعَالَى يَقْظَةٌ!».

وأنشد:

دع الأقمار تغرب أو تنير لنا يدو تذلل له البدور
لنا من نوره في كل وقت ضياء ما تغيره الدهور
أما عن الله تعالى، فإنه يقول:

إِنَّ اللَّهَ تَعَالَى موجود عند الناظرين في صناعته، مفقود عند الناظرين في ذاته.

أدركته العناية

استمر الشبلي متدفقاً وراء العلم حديثاً وفقهاً.. ثم، ثم ماذا؟
يقول الإمام المناوي:

تفقه على مذهب الإمام مالك، وكتب حديثاً كثيراً.. ثم شغله العناية
عن الرواية.

وكلمة الإمام المناوي:
«شغله العناية عن الرواية».

ها قصة، وذلك أن الشبلي وهو في طريقه في الدنيا والجاه والمناصب
والعلم الكسبي، إذا به يحضر دروس ولي الله «خير الناس».

وقبل أن نسير مع الشبلي، فإنه لا بد من لمحة عابرة عن خير الناس،
وقد كتبت عنه كتب الطبقات، وعنها توجز مايلي:

كتبته أبو الحسن، كان أصله من سامرا، وأقام ببغداد - صاحب أبا حمزة
البغدادي، وسأل السري السقطي عن مسائل، وكان إبراهيم الخواص تاب
في مجلسه، وكذلك الشبلي تاب في مجلسه - عمر طويلاً، وكان من أقران
النوري وطبقته.

قال أبو الحسن المالكى :

سألت من حضرموت النساج : عن أمره : فقال :

لما حضرته صلاة المغرب غشى عليه، ثم فتح عينيه وأومأ إلى ناحية باب البيت، وقال : قف عافاك الله ! إنما أنت عبد مأمور وأنا عبد مأمور، وما أمرتُ به لا يفوتك، وما أمرتُ به يفوتنى، فدعنى أمضى فبم أمرتُ به، ثم امض لما أمرت به، فدعا بقاء فتوضأ وصلى، ثم تمدد وأغمض عينيه، وتشهد ومات.

وقد سمعته أبو بكر الرازى وهو يقول :

« من عرف من الدنيا قدرها وجد من الآخرة حقها، ومن جهل من الآخرة حقها قتله من الدنيا نزرها. »

وقال :

الصبر من أخلاق الرجال، والرضا من أخلاق الكرام.

وقال :

من سبق بخطوة لا يذكرك إذا كان صادقاً مجتهداً.

وقال خير النساج :

الإخلاص هو الذي لا يقبل عمل عامل إلا به.

وقال:

ميراث أفعالك ما يليق بأفعالك. فاطلب ميراث فضله، فإنه أتم وأحسن.
قال الله تعالى:

﴿قُلْ بِفَضْلِ اللَّهِ وَبِرَحْمَتِهِ فَبِذَلِكَ فَلْيَفْرَحُوا هُوَ خَيْرٌ مِمَّا يَجْمَعُونَ﴾

وقال:

الخوف سوط الله في الأرض، يُقَوِّمُ بِهِ أَنْفُسًا قَدْ تَعَوَّدَتْ سُوءَ الْأَدَبِ،
وَمَتَى مَا آسَأَتْ الْجَوَارِحُ الْأَدَبَ، فَهُوَ مِنْ غَفْلَةِ الْقَلْبِ وَظِلْمَةِ السَّرِّ.
[انظر طبقات السلمي، وطبقات الشعرائي، والكواكب الدرية].

حضر الشبلي دروس هذا الرجل، وفتن به، وذلك أنه بصره بأمور
آخِرَتِهِ، وَأُمُورِ دُنْيَاهُ: إِنَّ اللَّهَ سَيَحَاتُهُ يَقُولُ:

﴿مَنْ كَانَ يَرِيدُ الْعَاجِلَةَ عَجَلْنَا لَهُ فِيهَا مَا نَشَاءُ لِمَنْ نُرِيدُ، ثُمَّ جَعَلْنَا لَهُ
جَهَنَّمَ يَصْلَاهَا مَذْمُومًا مَدْحُورًا. وَمَنْ أَرَادَ الْآخِرَةَ وَسَعَى لَهَا سَعْيَهَا وَهُوَ
مُؤْمِنٌ فَأُولَئِكَ كَانَ سَعْيُهُمْ مَشْكُورًا... كُلًّا نَقْدُ هَؤُلَاءِ وَهَؤُلَاءِ مِنْ عَطَاءِ
رَبِّكَ وَمَا كَانَ عَطَاءُ رَبِّكَ مَحْظُورًا. انظر كيف فضلنا بعضهم على بعض
وَلِلْآخِرَةِ أَكْبَرُ دَرَجَاتٍ وَأَكْبَرُ تَفْضِيلًا﴾

وما من شك في أن خير النساء من خير من يتحدثون عن هذا
الموضوع، وهو من أئمة من يعبرون عنه بشعورهم وبسلوكهم وبحديثهم.

إن الجري وراء المناصب، والفخر والخيلاء، والمال والثراء، والزينة، في جشع وفي تكالب.. وإن الاستسلام إلى الملذات والشهوات، والنزعات، إن كل ذلك متاع الحياة الدنيا، والله سبحانه وتعالى يقول:

﴿زين للناس حب الشهوات من النساء والبنين والقناطير المقنطرة من الذهب والفضة والخيل المسومة والأنعام والحرث، ذلك متاع الحياة الدنيا والله عنده حسن المآب﴾.

وكان حديث «خير الناس»، وقد تجرد إلى الله، وامتلاً قلبه بحبه، مؤثراً عذباً.

وانتبه السبلي إلى نفسه في قوة، وزاف الباطل كله في لحظات، وانتفض من أعماقه انتفاضة قذفت به مراحل في طريق الأتقياء، ومن الله عليه بجذبة من جذباته.

وإن في ترائنا الروحي من هذا القبيل بيان جميل لكثير من هؤلاء الذين اجتباهم الله سبحانه، فأخذهم عن أنفسهم إليه، أو - على حد تعبير الجنيد - أماتهم عن أنفسهم، وأحياهم به سبحانه. إن الله سبحانه وتعالى يقول:

﴿الله ينجي إليه من يشاء ويهدي إليه من ينيب﴾.

وهؤلاء الذين اجتباهم الله لو لم تتركهم عنايته، سبحانه، لساووا في حياتهم عبيداً لشهواتهم، ثم ماتوا في جو من مقت الله، ومن غضبه.

ولكنهم حينما أدركتهم عنايته سبحانه أصبح لهم ذكر عطر على كل
لسان: ذلك أنهم ألقوا بأنفسهم في رياض الطاعة عابدين متجهدين،
صائمين قائمين.

وألقوا بأنفسهم في المحيط الاجتماعي، عابدين مرشدين، دالين على الله
سبحانه.

وكان من علامة رضاء الله عنهم وحبهم لهم، أن ألقى حبهم في قلوب
الصالحين من عباده، وهدى على أيديهم الكثيرين ممن كانوا بعيدين عن جو
التقوى، ودخلوا بذلك في إطار:

لأن يهدي الله بك رجلاً خيراً لك من الدنيا وما فيها.

ولأن يهدي الله بك رجلاً خيراً لك من حمر النعم.

ولم تقتصر هدايتهم للجباري والعصاة والشاكين والبائسين على وجودهم
في الحياة، فإن آثارهم بعد انتقالهم إلى عالم الآخرة استمرت أنوارها هادية
للجباري، والعصاة، والشاكين والبائسين.

وإن الله سبحانه من فضله ومن كرمه يقول:

﴿سَنَكْتُبُ مَا قَدَّمُوا وَآثَارَهُمْ﴾.

وآثار الصالحين ترفع إلى السماء فتسطر في سجل حسناتهم يوماً فيوماً،
إلى أن يرث الله الأرض ومن عليها.

ونعود إلى السبلى وأستاذه:

لقد أثر خير النساج تأثيراً قويا على السبلى، فزلزل نفسه من جذورها، ودفعها دفعا نحو الطريق إلى الله، فنزع حب الرياسة من قلبه، وتهاقت حب الملذات من شعوره، واستشرقت نفسه إلى سعادة من نوع آخر.. لقد أخذ يتطلع إلى ما قاله إبراهيم بن أدهم:

«نحن في سعادة، لو علمها الملوك لجالدونا عليها بالسيوف».

والشبه بين حياة السبلى وحياة إبراهيم بن أدهم قوية، فقد كان كل منهما صاحب مركز مرموق، كان ثريا واسع الثراء، كان ذا جاه عريض.. وفي لحظة من اللحظات - أنضر ما يكون شياباً وفتوة - زاف الباطل، كل الباطل، من بين عينيه، واتجه في لحظة إلى الباقيات الصالحات، وأصبح - وما زال - مصدراً للهداية، واشعاعاً من النور بنير منازل السائرين.. وإذا كانت توبة إبراهيم بن أدهم لم تسر على النسق العادي المؤلف، وإنما كانت آية من الآيات الخارقة للعادة، فإن توبة السبلى - وهي آية من آيات الله - سارت على النسق المؤلف.

لقد تاب على يد خير النساج، وكانت توبته صادقة، وإذا صدقت التوبة أثمرت مباشرة الاستقامة، دون زمن فاصل أو حدود مُعَرَّقة.

واستقام السبلى في قلبه وروحه وشعوره وجوارحه، وما كان يتأق - وقد وصل إلى ذلك - أن يجري وراء المظاهر: إنه يريد أن يتفرغ للدعوة

في الله في نفسه حتى تتزكى، وفي المجتمع حتى يستقيم..

ومن أجل هذه العناية النبيلة قام بأمرين:

١ - أما الأمر الأول فهو أنه رجع إلى البلدة، التي كان والياً عليها وقال لأهلها:

أنا كنت صاحب الموفق، وكان ولائي ببلدكم هذه، فاجعلوني في حل، فجعلوه في حل، ولكنهم اعتقدوا - فيما يبدو - أن الموفق أصبح غاضباً عليه، فما كان يتأق - في نظرهم - أن يترك أحد الولاية باختياره، وأحبوا أن يكافئوه بشيء، فجمعوا له مالاً وهدايا:

«وجهدوا أن يقبل منهم شيئاً، فأبى»

وذهبت الإمارة، وذهب معها كل ما يحيط بها، وما يكمن فيها من مفاسد وسينات، وتحلل الشبلي - بذلك - مما كان ينوء به من مظاهر الدنيا.

٢ - أما الأمر الثاني فهو ما يعبر عنه صاحب الرقيات وغيره بقوله:

«ومجاهداته في أول أمره فوق الحد»

وتغيرت حالة الشبلي رأساً على عقب: لقد تغيرت في الأصدقاء، كان أصدقاؤه من حاشية الموفق، ومن الأثرياء وأصحاب الجاه، ولكنه بعد التجربة:

«صاحب السّيح أبا القاسم الجنيد ومن في عصره من الصّالحاء، ومن في
ضيقه الجنيد.

كان الجنيد - إذ ذاك - مركز الجاذبية للصوفية: كان مترناً كامل
لاتزان، وكان متعبداً على علمه، وكان عالماً كأجل وأعرق ما يكون العلم.

كانت الكتبة يحضرون مجلسه لألفاظه^(١).

والفقهاء لتقريره.

والفلاسفة لدقة نظره ومعانيه.

والمتكلمون لتحقيقه.

والصوفية لإشاراته وحقائقه...

أرايت كيف يكون العلم النافع إشعاعاً نورانياً لمختلف المثقفين في
التعب؟ على أن هؤلاء الذين كانوا يحضرون دروس الجنيد لم يكونوا طلبة
بالمعنى العادي للكلمة، وإنما كانوا علماء وأساتذة في فروع العلم المختلفة.

ولا ريب في أن الذين كانت تجذبهم أنوار الجنيد بصورة أشد إنما كانوا
من أصحاب المواجيد والأذواق: أي من الصوفية، وكان الجنيد إماماً لهم،
ومرتداً، وأخذاً بأيديهم إن قصروا، ومهدئاً لهم إن زاد بهم الوله: لقد كان

(١) والكتبة هنا هم اللغويون والأدباء الذين يعدون أنفسهم للكتابة، أو الذين يعملون
فيها بالفعل، وكانت وظائفهم عادة الكتابة في قصور الأمراء.

قد بدأ يفرح بالنابه من جنده، ويشد أزر من تعثر به الطريق، ويرد جماع
الجحيم، والكل يدين له بالفضل ويعترف له بالتقدير.

وارتبط الشبل بالجنيد، وما كان يهدأ الشبل إذا أتاه الوارد حتى يذهب
إلى الجنيد ويتحدث إليه ويسمع منه.

وحينما يأتيه الوارد يأخذ في البحث عن الجنيد لا يرى الأشخاص
لآخرين، ولا يعرفهم، وإن كان قد التقى بهم أكثر من مرة، إن صورة
جنيد تسيطر على فكره، بل وعلى بصره، حتى لا يكون فيها غيره.

ذهب مرة يبحث عن الجنيد، وسار هنا وهناك، ودخل المسجد، ومر
بأناس كثيرين، وكأنه لم ير منهم أحداً، ولذلك لم يسلم على أحد، ثم ذهب
إلى بيت الجنيد، فوقف بين يديه، وشفق بيديه، وأنشأ:

عودوني الوصال والوصل عذب	ورموني بالصد والصد صعب
زعموا حين أزعوا أن ذنبي	فرط حبي لهم وما ذاك ذنب
لا بحق الخضوع عند التلاقي	ما جزى من يحب إلا يجب

فأجابه الجنيد:

وتمنيت أن أرا	كـ فلما رأيتكنا
غلبت دهشة السرو	ر قلم أملك البكنا

وأحب الجنيد أن يخفف مرة عن الشبل فقال له مداعباً:

لو رددت أمرك إلى الله استرحت.

قال: لا، بل لو رد الله أمرى إليه لاسترحت.

فقال الجنيد: سيوف السبلى تقطر دماء.

ودخل على الجنيد يوماً، فقال له الجنيد مداعباً أيضاً:

من كان الله همه طال حزنه.

فقال السبلى: لا، من كان الله همه زال حزنه..

وكان الجنيد والسبلى كلاهما يحبان السماع، ولهم في ذلك طرائف:

أما السبلى فإنه صاح يوماً في السماع، فقيل له فيه، فقال:

لو يسمعون كما سمعت كلامها خروا لعزة ركنها وسجوداً^(١)

وأما عن الجنيد فإن السبلى يقول:

وكان أكثر اقتراح الجنيد على القوالين هذه الأبيات:

فلو أن لى فى كل يوم وليلة	ثمانين بحراً من دموع تدفق ..
لأفقيتها ثم ابتدأت يغيرها	وهذا قليل للفقى حين يعشق
أهيم به حتى الممات لشقوى	وحولى من الحب الميرج خندق

(١). ويروى صاحب النجوم الزاهرة أن للسبلى هذين البيتين:

نغنى العود فاشتقنا	إلى الأحساب إذ غنى
وكننا حينئذ كناسوا	وكانوا حينئذ كننا

وفوقه سحاب تَطُرُ الشوق والهوى وتحتى عيون للهوى تستدق
ومن تقدير الجنيد للسبلى هذه الكلمة العجوبة:

يقول أبو بكر محمد بن أحمد المقيّد، سمعت الجنيد بن محمد - وأقبل
يومًا على السبلى - يقول:

حرام عليك يا أبا بكر إن كلمت أحدًا فإن الخلق غرقى عن الله،
وأنت غرق فى الله..

وأحب الجنيد أن يبين للناس قدر السبلى، وأن يصرفهم عن نقده فى
حبه الجامح، وعن ذلك يقول أبو جعفر الفرغانى، سمعت الجنيد يقول:
« لا تنظروا إلى أبى بكر السبلى بالعين التى ينظر بها بعضكم إلى بعض،
فإنه عين من عيون الله تعالى ».

وهذه الكلمة للجنيد تسلمنا، إلى الحديث عن نظرة الكندى إلى
التصوف: طريقًا وغاية.

الفصل الثاني

الشبلي وتعريف التصوف

التصوف

كان أول ما وجه انتباهي إلى البحث عن الشبلى، ما قرأته عنه منذ زمن بعيد، وقد سنل:

لم سميت الصوفية بهذا الاسم؟ فأجاب:

إنما سميت الصوفية صوفية لبقية بقيت عليهم من نفوسهم، ولولاها ما تعلقتم بهم تسمية.

ويريد الشبلى أن يقول: إن الاتجاه إلى الله والقرب منه سبحانه - وهذا هو التصوف - يقتضى أن يتجرد الإنسان من التزغات والشهوات والنفس الأمارة بالسوء، وأن تذوب شخصيته في جو الأخلاق الربانية، ونعني إرادته في إرادة الله، وأن يكون هواه تبعاً للشرعة. يقول رسول الله، صلى الله عليه وسلم:

«لا يؤمن أحدكم حتى يكون هواه تبعاً لما جئت به».

وما من شك في أنه لا يؤمن الإنسان حتى يكون الله ورسوله أحب إليه مما سواهما.

ولقد قال سيدنا عمر مرة لرسول الله، صلى الله عليه وسلم:

والله لأنت يا رسول الله أحب إلى من كل شيء إلا نفسي، فقال:
لا - والذي نفسي بيده - حتى أكون أحب إليك من نفسك، فقال عمر:
فأنت الآن والله أحب إلى من نفسي، فقال: الآن يا عمر..
(رواه البخارى)

وقول رسول الله، صلى الله عليه وسلم:

الآن يا عمر.

أى أن الأمر الآن قد استقام، وبلغ الإيمان غايته.

وكل هذا معناه أن الإنسان المتمسك بفرديته الشخصية وبشريته،
لا يكون سائراً في جو القرب من الله سبحانه، ولقد قال الجنيد مرة في
تعريف التصوف:

أن يميّتك الحق عنك، ويحييك به.

أى يميّتك الحق عن أن تنظر إلى أعمالك، وعن أن تتحرك بصفاتك،
وتسير على هواك، ويحييك بالتخلق بالأخلاق الربانية.

وهذا أيضاً هو معنى الاصطلاح الصوفي «الفناء والبقاء»: ومعناه الفناء
عن ما هو مذموم، والبقاء بكل ما هو محمود، أو - بتعبير أدق - الفناء
عن البشرية:

أى نسيان الإنسية، والبقاء بالربانية.. يقول الإمام القشيري:

أشار القوم بالفناء إلى سقوط الأوصاف المذمومة.

وأشاروا بالبقاء إلى قيام الأوصاف المحمودة به.

وإذا كان العبد لا يخلو عن أحد هذين القسمين، فمن المعلوم أنه إذا لم يكن أحد القسمين كان القسم الآخر لا محالة، فمن فنى عن أوصافه المذمومة ظهرت عليه الصفات المحمودة، ومن غلبت عليه الخصال المذمومة استترت عنه الصفات المحمودة.

ويقول:

«فمن ترك مذموم أفعاله بلسان الشريعة يقال إنه فنى عن شهواته. فإذا فنى عن شهواته، بقي بنيته وإخلاصه في عبيدته.

ومن زهد في دنياه بقلبه، يقال فنى عن رغبته.

فإذا فنى عن رغبته فيها، بقي بصدق إنابته.

ومن عالج أخلاقه فنفى عن قلبه الحسد والحقد، والبخل والشح، والغضب والكبر، وأمثال هذا من رعونات النفس، يقال: فنى عن سوء الخلق.

فإذا فنى عن سوء الخلق، بقي بالفتوة والصدق: اهـ.

وكل هذا - أيضًا - ليس معناه إلا القرب بقدر الاستطاعة من:

﴿قُلْ إِنْ صَلَاتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ، لَا شَرِيكَ لَهُ، وَبِذَلِكَ أُمِرْتُ وَأَنَا أَوَّلُ الْمُسْلِمِينَ﴾.

أن تكون الحياة لله وحده، وما دامت لله وحده فليس للإنسان منها حظ، إنها كلها لله، وهذا هو المعنى الحقيقي لكلمة التوحيد:

أشهد أن لا إله إلا الله

فإذا ما شهد الإنسان التوحيد فهو من أولى العلم، ودخل في نطاق الآية القرآنية الكريمة:

﴿شَهِدَ اللَّهُ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ وَالْمَلَائِكَةُ وَأُولُو الْعِلْمِ قَائِمًا بِالْقِسْطِ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾.

وبما يوضح ما نقصده، أن يتحقق الإنسان بقوله تعالى:

﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾.

ولا عجب في أن يقول بعض العلماء:

إن سر القرآن في الفاتحة، وسر الفاتحة في:

﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾^(١).

(١) روى ابن كثير، عن بعض السلف قوله: إن الفاتحة سر القرآن، وسرها هذه الكلمة: ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾. فالأول أي قوله تعالى: ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ﴾ تبرؤ من الشرك، والثاني أي قوله تعالى: ﴿إِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾ تبرؤ من الجور والقرينة وتفويض إلى الله عز وجل.

وإن: ﴿إياك نعبد وإياك نستعين﴾ تعبير صادق عن التوحيد -

وهذا المعنى ورد في كثير من آيات القرآن. منها قوله تعالى: ﴿فاعبدوه وتوكلوا عليه﴾. وهذه الكلمة القرآنية قد قدم الله سبحانه وتعالى لها ثانياً يعظم أساساً ومبرراً. يقول سبحانه وتعالى: ﴿والله غيب السماوات والأرض، وإليه يرجع الأمر كله فاعبدوه وتوكلوا عليه، وما ريك بغافل عما تعملون﴾.

واقته سبحانه وتعالى، يخاطب رسوله، صلى الله عليه وسلم، قائلاً له: ﴿قل هو الرحمن آمنا به وعليه توكلنا﴾.. ويقول سبحانه: ﴿رب الشرق والمغرب، لا إله إلا هو فاتخذة وكيلاً﴾.

وما من شك في أن الآية الكرّمية: ﴿إياك نعبد وإياك نستعين﴾، تعني غناية واضحة وجوب إخلاص العبادة لله وحده، وجوب قصر الاستعانة على الله وحده، والقرآن يوضح، بما لا مزيد عليه، أن الله سبحانه وتعالى، هو وحده المتصرف في الكون، إنه المتصرف في السير من أمر الكون وفي العظم منه.

﴿قل اللهم مالك الملك، تزقي الملك من تشاء وتنزع الملك ممن تشاء، وتعز من تشاء وتذل من تشاء. بيدك الخير إنك على كل شيء قدير﴾.

وهو سبحانه، كما يملك السماوات والأرض، وكما يمسكها أن تزولا، ولئن زالتا إن أمسكها من أحد. من بعده فإنه يملك كل جزئية من جزئيات العالم:

إنه يملك البصر في العين، ويملك السمع في الأذن، كما يملك العين والأذن، ويملك الصلابة في الجسم الصحيح، ويملك استمرار الجاء عند ذوى الجاء، ولو شاء سبحانه لأزال ذلك كله، ومنع استمراره. إن قوله تعالى: ﴿وإليه يرجع الأمر كله﴾، عام شامل، ومن أجل ذلك فإن العبادة يجب أن تكون خالصة له، وأن الاستعانة يجب أن تتمحور له.

ولقد رسم سبحانه الوسيلة الفصيحة للاستعانة المثمرة به، إنها إخلاص العبادة له فمن أحب أن يكون الله سبحانه وتعالى معه بالتوفيق والتيسير والعون، من أحب أن يستجيب الله له فيحقق العبودية له سبحانه. فإياك نعبد وسيلة لتحقيق ﴿وإياك نستعين﴾: وفي حديث =

والتوحيد نهاية التصوف، يقول الشبلي في تعريف التصوف:

«يلو» معرفة الله، ونهايته توحيده».

فإذا ما وصل الإنسان إلى التوحيد الصادق، فقد تخلص عن جميع أهوائه ونزغاته ونزعاته وفرديته وإنيته، وجميع صفات التحديد فيه، ودخل بذلك في ﴿إياك نعبد وإياك نستعين﴾.

ولم تصيح له نية لدنيا يصيبها، أو امرأة يتزوجها، وإنما تصبح هجرته إلى الله، ورسوله خالصة صافية صادقة، يقول رسول الله، صلى الله عليه وسلم، فيما رواه الإمام البخاري:

«إنما الأعمال بالنيات وإنما لكل امرئ ما نوى، فمن كانت هجرته

=فدسى رواه الإمام البخاري توضيح لذلك، يقول رسول الله، صلى الله عليه وسلم، فيما رواه عن ربه: «من عادى لي وليا فقد آذنته بالحرب، وما تقرب إلى عبدي بشيء أحب إلى من أداء ما افترضته عليه، وما يزال عبدي يتقرب إلى بالنوافل حتى أحبه، فإذا أحببته كنت سمعه الذي يسمع به، وبصره الذي يبصر به، ويده التي يبطش بها، ورجله التي يمشي بها، وإن سألني أعطيته، ولئن استعاذني لأعيذنه». هذا الحديث الشريف يبين في وضوح أن أحب شيء يتقرب به الإنسان إلى الله، إنما هو أداء ما فرض الله عليه، وأن الإكثار من النوافل، مع أداء الفرائض وسيلة إلى حب الله، سبحانه وتعالى، لعبد، وإذا أحب الله إنسانا كان معه بالتوفيق والهداية والتيسير، واستجاب له إذا سأل، وأعاده إذا استعاذ. وبعد: فإن ﴿إياك نعبد وإياك نستعين﴾ هي تحقيق للآيمان الصحيح والتقوى الصادقة، أي أنها الصورة الواقعية لأولياء الله سبحانه، والله تعالى يقول:

﴿ألا إن أولياء الله لاخوف عليهم ولاهم يحزنون، الذين آمنوا وكانوا يتقون، لهم البشري في الحياة الدنيا وفي الآخرة، لا تبدل لكلمات الله ذلك هو الفوز العظيم﴾.

إلى الله ورسوله، فهجرته إلى الله ورسوله، ومن كانت هجرته لدنيا يصيبها،
أو امرأة ينكحها، فهجرته إلى ما هاجر إليه»

والشيلي حينما يقول في تعريف التصوف الذى ذكرناه: «وثنائته
توحيد».

إنما يتحدث عن درجة الوصول: أى الدرجة التى يطلق فيها على
الإنسان أنه «صوفى»، وهى الثمرة السامية لتزكية النفس التى يقول الله
سبحانه عنها:

﴿قَدْ أَفْلَحَ مَنْ زَكَّاهَا﴾.

وهذه الثمرة لها طرق عدة، ومن هنا يقول سادتنا، رضوان الله عليهم:
«التوحيد واحد، والطرق إلى الله كنفوس بنى آدم».

إن الناس يتفاوت استعدادهم، ويسهل على بعضهم ما لا يسهل على
الآخرين، ولعل ذلك يفسر جزءاً من الحكمة فى اختلاف أنواع العبادات
من ذكر وصلاة وصيام... وفتح باب النوافل فى ذلك طويلاً عريضاً مع
تحديد حد حتمى من الفروض، وفى باب النوافل - فى أى منها - متسع
للاجتهاد. وكل منها - بتوفيق الله - يقود إلى التعرض لنفحات الله، وفى
الآثر:

«ألا إن لربكم فى أيام دهركم نفحات، ألا فتعرضوا لها».

وما من شيء في أن السري في القرب هو فضل الله تعالى ورحمته؛
﴿ولولا فضل الله عليكم ورحمته ما زكي منكم من أحد أبداً﴾.
وتعددت - إذن - وسائل الوصول إلى تزكية النفس. وتعددت طرق
الوصول إلى التوحيد الصادق:

توحيد: أشهد أن لا إله إلا الله.

توحيد: المشاهدة.

توحيد: ﴿شهد الله أنه لا إله إلا هو والملائكة وأولو العلم قائماً
بالقسط لا إله إلا هو العزيز الحكيم﴾.

ولكنها مهما تعددت، فإنها تعود دائماً إلى التوحيد: إن التوحيد نهايتها.
ويشبهون الأمر بالدائرة ومركزها.

إن الطرق هي الخطوط التي تبدأ من محيط الدائرة لتنتهي بالمركز، وهي
إذا تباعدت قليلاً أو كثيراً في المبدأ، فإنها تقترب من بعضها كلما اقتربت
من المركز، فإذا وصلت إلى المركز اتحدت، والمركز هو التوحيد.

ولكن البشيل لم يعرف التصوف بتعريف واحد، وإذا كان التعريف
الذي ذكرناه هو أكملها وأتمها، فإن له تعريفات أخرى توضح وتفسر في
زاوية الطريق على الخصوص، وهي: في صورة أدق. توضح الطريق من
الجانب الأخلاقي على الأخص، ومن ذلك ما رواه أبو الحسن على بن

المنى الغنبري، قال: سألت أبا بكر الشبل جعفر بن دلف عن التصوف فقال:

«التصوف ترويح القلوب بمراوح الصفاء، وتحليل الخواطر بأردية الرفاء، والتخلق بالسخاء، والبشر في اللقاء».

وهذه كلمات في الجانب الأخلاقي، أى في جزء من أجزاء الطريق، وهى كلمات مأخوذة من الأحاديث النبوية الشريفة، ومتناسقة مع القرآن الكريم، وما يتناسب معها من القرآن والسنة - وهى لا شك مأخوذة منها - ما يلى:

﴿أقمن شرح الله صدره للإسلام فهو على نور من ربه فويل للقاسية قلوبهم من ذكر الله أولئك في ضلال مبين﴾.

﴿ألا بذكر الله تطمئن القلوب﴾.

﴿ومن يؤمن بالله يهد قلبه﴾.

﴿وأوفوا بعهد الله إذا عاهدتم﴾.

﴿من المؤمنين رجال صدقوا ما عاهدوا الله عليه، فمنهم من قضى نحبه ومنهم من ينتظر، وما بدلوا تبديلاً﴾.

﴿وأنفقوا من مال الله الذى آتاكم﴾.

﴿آمنوا بالله ورسوله وأنفقوا مما جعلكم مستخلفين فيه﴾.

﴿محمد رسول الله والذين معه أشداء على الكفار رحماء بينهم﴾.

﴿إنما المؤمنون إخوة﴾.

أما الأحاديث فمنها قوله، صلى الله عليه وسلم، فيما رواه النعمان ابن بشير، رضى الله عنه:

«الخلال بين والحرام بين، وبينها أمور مشتهيات لا يعلمهن كثير من الناس، فمن اتقى الشبهات فقد استبرأ لدينه وعرضه، ومن وقع في الشبهات وقع في الحرام كالراعى يرعى حول الحمى، يوشك أن يواقع، ألا وإن لكل ملك حمى، ألا وإن حمى الله في أرضه محارمه، ألا وإن في الجسد مضغة، إذا صلحت صلح الجسد كله، وإذا فسدت فسد الجسد كله، ألا وهى القلب^(١)».

وفى أخرجه ابن أبي حاتم بسنده، عن عبيد الله بن مسعود، قال:

«تلا رسول الله، صلى الله عليه وسلم، هذه الآية:

﴿فمن يرد الله أن يهديه يشرح صدره للإسلام﴾. قالوا يا رسول الله:

ما هذا الشرح؟ قال:

«نور يقذف به في القلب، قالوا: يا رسول الله، فهل لذلك من أمارة

تعرف؟

(١) متفق عليه.

قال: نعم. قالوا: وما هي؟ قال:

«الإجابة إلى دار الخلود، والتجافي عن دار الغرور، والاستعداد للموت قبل الموت».

وعن جابر - رفعه - سئل رسول الله ، صلى الله عليه وسلم: أي الإسلام أفضل؟

قال: «من سلم المسلمون من لسانه ويده».

قال: فأى الإيمان أفضل؟

قال: الصبر والسماحة^(١).

قال: فأى المؤمنين أكثر إيماناً؟

قال: «أحسنهم خلقاً».

قال: فأى الجهاد أفضل؟

قال: «من عقر جواده وأهريق دمه».

قال: فأى الصلاة أفضل؟

قال: «طول القنوت».

(١) وفيها رواه جابر: سئل رسول الله: صلى الله عليه وسلم: ما من الإيمان؟ قال: «الصبر والسماحة». رواه الحارث وأخرجه ابن حبان في صحيحه.

قال: فأى الصدقة أفضل؟

قال: «جهنم المقل».

قيل: فأى الهجرة أفضل؟

قال: «أن تهجر ما حرم الله عليك»^(١).

وعن أبي هريرة - رفعه - قال: قال رسول الله، صلى الله عليه وسلم:

«إنكم لن تسعوا الناس بأموالكم، فليسمعهم منكم بسط الوجه وحسن الخلق»^(٢).

وعن مطرف بن عبد الله بن الشخير، قال:

أتى رسول الله، صلى الله عليه وسلم، رجل فقال: أى الإيمان أفضل؟

قال: «الخلق الحسن».

فأعاد عليه فقال: «الخلق الحسن».

فأعاد عليه الثالثة، أو الرابعة، فأما أقامه وإما أقعده، قال:

«أن تلقى أخاك وأنت طليق» ثم سأل رسول الله، صلى الله عليه وسلم،

يحسن الخلق الحسن، ويقول: «هو من الله».

(١) أخرجه الإمام مسلم، والترمذي باختصار.

(٢) أخرجه ابن أبي شيبة.

ويقيح الخلق السوء ويقول: هو من الشيطان». ثم قال:

«ألا تنظرون إلى حمرة عينيه، وانتفاخ أوداجه؟»^(١).

ومن تعاريف السبيل في هذا الجانب ما يقوله:

التصوف: النألف والتعاطف.

وهو تعريف مأخوذ - أيضًا - من القرآن والسنة، ولعل مصدره

ما يقوله الله سبحانه:

﴿وَالْمُؤْمِنُونَ وَالْمُؤْمِنَاتُ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ﴾.

وقوله:

﴿وَلَا تَنَازَعُوا فَتَفْشَلُوا وَتَذْهَبَ رِيحُكُمْ﴾.

وقوله:

﴿وَاعْتَصِمُوا بِحَبْلِ اللَّهِ جَمِيعًا وَلَا تَفَرَّقُوا﴾.

وقول الرسول، صلى الله عليه وسلم:

«المؤمن للمؤمن كالبنيان يشد بعضه بعضًا».. ويقول:

«تري المؤمنين في توادهم وتراحهم كالجسد، إذا اشتكى عضو تداعى

له سائر الأعضاء بالسهر والحمى».

(١) رواه البخاري مرسلًا.

وإذا اتجهنا إلى الأخلاق في ناحيتها الروحية الدقيقة التي تتصل
بالمحاسبة والمراقبة، فإن الشبلى يعرف التصوف بما يلى:
«التصوف ضبط حواسك، ومراعاة أنفاسك».

ومصدر هذا التعريف:

﴿قل للمؤمنين يغضوا من أبصارهم ويحفظوا فروجهم ذلك أزكى
لهم إن الله خير بما يصنعون، وقل للمؤمنات يغضضن من أبصارهن
ويحفظن فروجهن، ولا يبدین زینتهن إلا ما ظهر منها، وليضربن
بخمرهن على جيوبهن، ولا يبدین زینتهن إلا لبعولتهن، أو آبائهن أو آباء
بعولتهن أو أبنائهن، أو أبناء بعولتهن، أو إخوانهن أو بنى إخوانهن،
أو بنى أخواتهن أو نساءهن أو ما ملكت أيمانهن أو التابعين غير أولى
الإربة من الرجال أو الطفل الذين لم يظهروا على عورات النساء،
ولا يضربن بأرجلهن ليعلم ما يخفين من زينتهن، وتوبوا إلى الله جميعاً
أيها المؤمنون لعلكم تفلحون﴾.

ويعرف الشبلى التصوف بتعريف هو وصف لحال الصوفى، يشرحه فى
بعض أحيانه: «التصوف: لا حال يقل، ولا سماء يظل».

ومعناه أن الصوفى لا يثبت على حال، وذلك أنه فى ترقى باستمرار، فإذا
ثبت على حال فقد وقف وأصبح كالماء الآسن لأنه لا يجرى، يقول
القشيري فى رسالته:

والحال عند القوم معنى يرد على القلب من غير تعمد منهم ولا اجتناب، ولا اكتساب لهم من طرب أو حزن أو بطل أو قبض أو شوق أو انزعاج أو هيبة أو احتياج.

وقالوا: الأحوال كاسمها، يعنى أنها كما تحل بالقلب، تزول في الوقت.

سمعت الأستاذ أبا على الدقاق رحمه الله، يقول في معنى قوله، صلى الله عليه وسلم: «إنه ليغان على قلبي حتى أستغفر الله تعالى في اليوم سبعين مرة». إنه كان، صلى الله عليه وسلم، أبداً في الترقى، من أحواله، فإذا ارتقى من حالة إلى حالة أعلى مما كان فيها، فربما حصل له ملاحظة إلى ما ارتقى عنها، فكان يعدّها «غينا» بالإضافة إلى ما حصل فيها، فأبداً كانت أحواله في التزايد.

ومقدورات الحق سبحانه من الألفاظ لا نهاية لها:

وهو لا يسكن إلى ما تتروح به النفوس في هذا العالم، وهذا معنى: «لا ساء يظل».

والمعنى: أنه باستمرار في جهاد متصل، وفي سعي للقرب من الله سبحانه، لا يقف في جهاده، ولا يسكن إلى الراحة، يقول السهروردي: وأقوال المشايخ في ماهية التصوف تزيد على ألف، ويطول نقلها، ونذكر ضابطاً يجمع جل معانيها، فإن الألفاظ - وإن اختلفت - متقاربة المعاني، فنقول:

«الصوفي: هو الذي يكون دائم التصفية، لا يزال يصفى الأوقات عن سوب الأكار، بتصفية القلب عن سوب النفس».

ويعينه على هذه التصفية دوام افتقار إلى مولود. فبدوام الافتقار ينقى من الكدر، وكلما تحركت النفس وظهرت بصفة من صفات، أدركها ببصيرته النافذة، وفر منها إلى ربه، فبدوام تصفيته جمعته، وبحركة نفسه تفرقه وكدره، فهو قائم يربى على قلبه، وقائم بقلبه على نفسه، قال الله تعالى: ﴿كُونُوا قَوَّامِينَ لِلَّهِ شُهَدَاءَ بِالْقِسْطِ﴾.

وهذه القوامية لله على النفس هي التحقق بالتصوف، قال بعضهم: «التصوف كله اضطراب، فإذا وقع السكون فلا تصوف».

والسر فيه أن الروح مجذوبة إلى الحضرة الإلهية، يعنى أن روح الصوفي منطلقة منجذبة إلى مواطن القرب، وللنفس بوضعها رسوب إلى عالمها وانقلاب على عقبها.

ولا بد للصوفي من دوام الحركة بدوام الافتقار ودوام الفرار وحسن التفقد لمواقع إصابات النفس.

ومن وقف على هذا المعنى يجد في معنى «لصوفي» جميع المتفرق في «الإشارات».

ونعود فنقول: إن تعريف الشبلي للتصوف بأنه:

«يؤوله معرفة الله ونهايته توحيده».

هو التعريف الأكمل، وبِيقينة التعريفات. توضيح وتفسير.

ولكن التعريف الكامل للتصوف هو حياة الشبلى نفسها؛ إنها تعريف واقعى واضح للتصوف..

ومع ذلك فإنه ينبغي - وقد عرفنا التصوف عند الشبلى - أن نبدأ - معه - فى رسم الطريق.

الفصل الثالث

الطريق الصوفي عند الشبلي

الطريق الصوفي عند الشبلي

التوبة:

وأول الخطوات في طريق الصوفية، إنما هي التوبة الصادقة، والتوبة الصادقة تركز على شرطين أساسيين:

أولها : الانفصال التام عن المعاصي في الحاضر.

وثانيهما: العزم المؤكد على أن لا يأتي الإنسان الذنب في المستقبل، ثم هي تختلف بعد ذلك بالنسبة للناس، بحسب مواقعهم، وذلك أن من توبة المدرس مثلاً أن يكون مخلصاً في تدريسه، وكذلك الموظف يكون أميناً في علمه، وتوبة الحاكم أن يسير في حكمه بحسب الشرع الشريف، فإذا حكم بدون ذلك لا يكون تائباً - وتوبة من بيده - إقامة الحدود، إنما هي في أن يأمر بإقامة الحدود وإلا لا تقبل توبته.

وكيف يتأتى أن يتوب مشرع، مثلاً، وهو يشرع بغير ما أنزل الله؟

وكيف يتأتى أن يتوب قاض وهو يحكم بغير ما أنزل الله؟

وكيف يتأتى أن يتوب وال وهو - مع أن أمر ولايته بيده - يسير بها في جو من قوانين الغرب أو الشرق؟

إن التوبة تثمر الاستقامة إذا صدقت، ونأمل التعبير القرآني الكريم، حينما يخاطب الله سبحانه وتعالى رسوله، فيقول له:

﴿فاستقم كما أمرت ومن تاب معك﴾.

لقد أمر الله تعالى بالاستقامة وأمر التائبين بها، فإذا لم تثمر التوبة الاستقامة، فلا توبة، والاستقامة التزام الأمر في التشريع والأخلاق، ونظام المجتمع، واجتناب النهي في كل ذلك.

والاستقامة، التي هي ثمرة التوبة النصوح، تتضمن الإخلاص، ولن تكون توبة إذا لم يتوافر الإخلاص، ولن يتقبل الله العمل إذا لم يتوافر الإخلاص، وهو سبحانه القائل:

﴿ألا لله الدين الخالص﴾.

فكل ما ليس بخالص لا يكون لله فيه نصيب.

ويقول رسول الله، صلى الله عليه وسلم:

من فارق الدنيا على الإخلاص لله وحده، لا شريك له، وأقام الصلاة، وآتى الزكاة، فارقها والله عنه راض.

واقعد سأل معاذ، رضي الله عنه، وهو مسافر إلى اليمن، رسول الله، صلى الله عليه وسلم، النصيحة، فقال له:

اخْلِصْ دينَكَ يكفِكَ العمل القليل.

والإخلاص جوهره إخلاص النية قبل العمل، وفي أثناء العمل، وبعد العمل، يقول رسول الله، صلى الله عليه وسلم:

«إنما الأعمال بالنيات، وإنما لكل امرئ ما نوى، فمن كانت هجرته إلى الله ورسوله، فهجرته إلى الله ورسوله، ومن كانت هجرته لدنيا يصيبها أو امرأة يتزوجها، فهجرته إلى ما هاجر إليه».

وتوبة الصوفي لها - مع كل هذه القواعد، في مجرى العادة: الوضع الطبيعي عند الصوفية، وهو: أن تكون على يد شيخ.

وهي بذلك تأخذ أبعاد البيعة، فهي توبة، وهي بيعة، أو هي توبة متضمنة في البيعة!

وأول بنود البيعة هو:

«ألا نشرك بالله شيئاً».

ويهتم الصوفية اهتماماً كبيراً بهذا البند ويتعمقون فيه تعمقاً لا يضارعهم فيه غيرهم، ومن ذلك مثلاً ما يفوله الشبلي:

«الأسرار! الأسرار! صونوها عن الأغيار».

إن القلب بيت الله، وإذا كان لله بيوت في الأرض هي المساجد، فإن الله بيوتاً في بني الإنسان هي: قلوبهم؟

ويعرض الصوفية أن تكون بيوت الله فيهم، لا يسكنها إلا هو سبحانه...

ومن أجل ذلك يحاولون - ابتداء من لحظة البيعة - أن يملأ الله قلوبهم!

قال الشبلي مرة: وقد أخذه وجد شديد:

«ما أحد يعرف الله».

قيل: وكيف؟

قال:

«لو عرفوه لما اشتغلوا بسواه!»

والإنسان يمكنه القيام بعمله العادي، وبالجهد في سبيل الله، وهو في كل ذلك مع الله. وهكذا كان رسول الله، صلى الله عليه وسلم، مثالاً في الحياة: جهاداً وتربية للصحابة. وعناية بكل صغيرة وكبيرة من أمر الدعوة. وهو مع كل ذلك مع الله، إن الصوفي يعمل في سبيل الله، ولكنه في عمله لا يلاحظ نفسه، يقول أبو بكر محمد بن عبد الله الرازي: سمعت أبا بكر الشبلي يقول:

«ما أحوج الناس إلى سكرة».

فقيل: أي سكرة؟ فقال:

«سكرة تغنيهم عن ملاحظة أنفسهم، وأفعالهم وأحوالهم، والأكوان

وما فيها!»

وكان يقول:

«ليس يخطر الكون ببالي، وكيف يخطر الكون ببالي من عرف المَكُون؟!»

أما أهل البلاء - فيما يرى الشبلي - فإنهم: «أهل الغفلة عن الله!»

لقد سئل، رضى الله عنه، عن حديث:

إذا رأيتم أهل البلاء فاسألوا ريكم العافية؟ فقال:

«هم أهل الغفلة عن الله تعالى؟»

ويقول الشبلي:

«مساكين هؤلاء المماليك: نظروا بعيونهم إلى الملكوت المخلوق، ورضوا بالجنان المخلوقة، فبقوا معها خالدين فيها، وأما الملوك فلم يرضوا بها، فنظروا بقلوبهم إلى مالك الملوك، فبقوا معه في مقعد صدق عند مليك مقتدر».

وسأله رجل عن مقام «التوبة» قائلاً:

«يطرق سمعى من كتاب الله ما يحذونى على ترك الأتساء، والإغراض عن الدنيا، ثم أرد إلى نفسى وإلى أحوالى، وإلى الناس، ثم لأبئى على هذا، ولا على هذا، وأرجع إلى الوطن الأول مما كنت عليه من سباعى القرآن».

فقال له السبيل :

يقول الله : « ما طرق سمعك من القرآن فاجتذبك به إلى فهو عطف
منى عليك، ولطف منى بك ».

وما أردك به إلى نفسك فهو شفقة منى عليك، لأنك لم يصح لك التبرؤ
من الحول والقوة في التوجه إلى الله.

ويصل الأمر بالسبيل أن يقول :

طرفة عين في غفلة عن الله لأهل المعرفة شرك.

هذا النمط من التوحيد الذي يبدأ مع المرید، منذ البداية، والذي تنتهي
التوبة الصادقة إلى استشفائه، والذي هو طابع الاستقامة : هو البداية
للتصوف، وهو النهاية أيضاً :

يلتؤه معرفته : [واحدًا] !

ونهايته : توحيده !.

وكما تثمر التوبة الصادقة الاستقامة، وكما تثمر الاخلاص المتضمن في
الاستقامة، فإنها تثمر العمل.

ويقول الإمام السبيل :

« لسان العمل أفصح من لسان العلم ».

وما من شك في أن العلم والعمل ضروريان، ولكن العلم إذا لم يثمر العمل، فإنه لا يكون علمًا نافعًا.

والشيلي، بمجرد توبته جد في العبادة. واجتهد فيها اجتهادًا كبيرًا، إن المؤرخين يقولون عنه:

«وكانت مجاهداته في بدايته فوق الحد».

ولكن فكرة التوحيد مسيطرة السيطرة الكاملة في كل خطوات الصوفي، وهي التي جعلته يقول:

«من طلبه به تعالى صح به توحيد، ومن طلبه بنفسه لم يصح له توحيد».

ويقول:

«من طلب الحق بالمجاهدات فهو بعيد عن وصوله إلى مطلوبه، ومن طلبه به تعالى وصل إليه» ثم أنشد:

أيها المنكح الشريا سهيلا عمرك الله: كيف يجتمعان؟
هي شاميه إذا ما استهلكت وسهيل إذا استهل يمان!
وسئل الشيلي: هل يبلغ الإنسان بجهدِهِ إلى شيء من طرق الحقيقة أو الحق؟ فقال:

«لا بد من الاجتهاد والمجاهدة، لكنها لا يوصلان إلى شيء من الحقيقة لامتناعها عن أن تدرك بجهد أو اجتهد، وإنما هي مواهب، يصل العبد

إليها بإيصال الحق تعالى لا غير، ولولا أنه تعالى بدأهم بالمحبة، وهداهم، لما أحبوه!».

لا بد من الاجتهاد والمجاهدة، والسبيل يقول في وضوح:
«ليس لمريد فترة».

أى: أن المريد في مجاهدة دائمة، وكما يقول الجنيد عن التصوف:
«إنه عنوة لا صلح فيها».

إنه جهاد مستمر، ولكن:
﴿ولولا فضل الله عليكم ورحمته، مازكى منكم من أحد أبداً﴾.
مجاهدة وخوف من الله، وأمل في القبول، ورجاء في الرضا.
ومع جد السبيل في الطاعات على وجه العموم، فإنه كان - حينما يدخل
شهر رمضان - جد في الطاعات أكثر، ويقول:
«هذا الشهر عظمه الله، فأنا أقوم بتعظيمه».

وكان يقتدى في ذلك برسول الله، صلى الله عليه وسلم، الذي كان يجد
في الطاعات على وجه العموم، حتى إذا دخل شهر رمضان جد فوق جده،
حتى إذا دخلت العشر الأواخر من رمضان - كما تقول السيدة عائشة،
رضي الله عنها:

«... أحيا الليل، وأيقظ أهله، وجد وشد المنزلة».

ونسان العمل، الذى هو أفصح وأدل على التقوى من لسان العلم،
يتضمن:

الذكر:

ولصوفية يهتمون بالذكر اهتماماً بالغاً، ومن كلماتهم فى ذلك: يقول
سيدى أبو مدين التلمستانى، رضى الله عنه:

«من دامت أذكاره صفت أسرارهِ، ومن صفت أسرارهِ كان فى حضرة
الله تعالى قرارهِ».

وقال الإمام القشيري:

«من خصائص الذكر أنه غير مؤقت بوقت، فما من وقت إلا مطالب به:
إما وجوباً أو ندباً، بخلاف غيره من الطاعات، وفى ذلك تفضيله على سائر
الأعمال...»

وما من شك فى أنه مفضل على أعمال النفل، إذ أن الفروض: فرض،
وهى لا يستغنى عنها بشيء آخر، وهذا هو ما قصده المؤلف رضى الله
عنه.

وجاء فى معاهد التحقيق كذلك - فى معنى قوله تعالى:

﴿فَاذْكُرُونِي أَذْكُرْكُمْ﴾.

أى:

اذكروني باللسان، أذكركم بتنقيح الجنان!
اذكروني بالأسرار، أذكركم بترادف المنح والأسرار!
اذكروني بالمحضور، أذكركم بالفتح والسرور!
اذكروني بالتعظيم، أذكركم بالفوز العظيم!
اذكروني بالاحترام، أذكركم بالكرامة والإكرام!
اذكروني بالهمة والاهتمام، أذكركم بالحكمة والإلهام!
اذكروني بالقلوب، أذكركم بكشف أسرار الغيوب!
اذكروني بالأركان، أذكركم بالمحبة والعرفان». اهـ.

والصوفية حين يهنمون بالذكر، فإنما يتابعون في ذلك رسول الله، صلى الله عليه وسلم، وهو صلوات الله وسلامه عليه، يتابع توجيه القرآن الكريم وهو:

﴿فَاذْكُرُونِي أَذْكُرْكُمْ﴾.

ولقد حث الله سبحانه وتعالى على الذكر الكثير فقال سبحانه:
﴿وَإِذْكُرْ رَبَّكَ فِي نَفْسِكَ تَضَرُّعًا وَخِيفَةً، وَدُونَ الْجَهْرِ مِنَ الْقَوْلِ
بِالْغَدُوِّ وَالْآصَالِ، وَلَا تَكُنْ مِنَ الْغَافِلِينَ﴾.

وحث الله سبحانه وتعالى على الذكر الكثير، فقال أمرا:

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اذْكُرُوا اللَّهَ ذِكْرًا كَثِيرًا، وَسَبِّحُوهُ بُكْرَةً وَأَصِيلًا﴾.

ووصف الله سبحانه وتعالى أصحاب العقول المستيرة التي رضى عنها، لأنها احدثت بهديه، فقال سبحانه مادحاً لهم:

﴿إِن فِي خَلْقِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ، وَاخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ، لآيَاتٍ لِّأُولَى الْأَلْبَابِ﴾.

﴿الَّذِينَ يَذْكُرُونَ اللَّهَ قِيَامًا وَقُعُودًا وَعَلَىٰ جُنُوبِهِمْ، وَيَتَفَكَّرُونَ فِي خَلْقِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ: رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَذَا بَاطِلًا، سُبْحَانَكَ فَقِنَا عَذَابَ النَّارِ﴾.

﴿رَبَّنَا إِنَّكَ مَن تَدْخُلُ النَّارَ فَقَدْ أَخْزَيْتَهُ، وَمَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ أَنْصَارٍ﴾.
﴿رَبَّنَا إِنَّا سَمِعْنَا مُنَادِيًا يُنَادِي لِلْإِيمَانِ أَنْ آمِنُوا بِرَبِّكُمْ فَأَمَنَّا، رَبَّنَا فَاغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا، وَكْفِّرْ عَنَّا سَيِّئَاتِنَا وَتَوَقَّنَا مِنَ الْأَبْرَارِ﴾.

﴿رَبَّنَا وَآتِنَا مَا وَعَدْتَنَا عَلَىٰ رِسْلِكَ وَلَا تُخْزِنَا يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِنَّكَ لَا تُخْلِفُ الْمِيعَادَ﴾.

ووصف الله سبحانه وتعالى المؤمنين الصادقين بصفات يرضى عنها اختتمها بقوله:

﴿وَالذَّاكِرِينَ اللَّهَ كَثِيرًا وَالذَّاكِرَاتِ أَعَدَّ اللَّهُ لَهُمْ مَغْفِرَةً وَأَجْرًا عَظِيمًا﴾.

والأمر بالذكر كثير في القرآن الكريم، من ذلك قوله تعالى:
﴿فَإِذَا قُضِيَتِ الصَّلَاةُ فَادْكُرُوا اللَّهَ قِيَامًا وَقَعُودًا وَعَلَىٰ جُنُوبِكُمْ﴾
ويقول ابن عباس - رضى عنها - في هذه الآية:
«أى بالليل والنهار، فى البر والبحر، والسفر والحضر، والغنى والفقر،
والمرض والصحة، والسر والعلانية»

ويقول الله سبحانه وتعالى:

﴿وَلَذِكْرُ اللَّهِ أَكْبَرُ﴾

ويقول ابن عباس - رضى الله عنها - عن هذه الكلمة القرآنية
الكريمة:

إن لها وجهين:

أحدهما: إن ذكر الله تعالى لكم أعظم من ذكركم إياه.

والآخر: إن ذكر الله أعظم من كل عبادة سواه.

ولقد تحدث رسول الله صلى الله عليه وسلم كثيراً عن الذكر: مادحاً
وأمرأً.

عن أبى هريرة - رضى الله عنه فيما رواه الإمام مسلم، قال: كان
رسول الله صلى الله عليه وسلم يسير فى طريق مكة، فمر على جبل يقال له
جمدان، فقال:

«سيروا: هذا جحدم، سيق المفردون».

قالوا: وما المفردون يا رسول الله؟

قال: «الذاكرون الله كثيراً».

وذكر هذا الحديث الترمذى وفيه:

يا رسول الله: وما المفردون؟

قال: المستهترون بذكر الله، يضع الذكر عنهم أثقالهم فيأتون الله يوم القيامة خفافاً.

وكلمة: «المفردون» كما يذكر صاحب كتاب: «الترغيب والترهيب» بفتح الفاء وكسر الراء.

و «المستهترون» - بفتح التائين هم المولعون بالذكر، المداومون عليه، لا يبالون ما قيل فيهم، ولا ما فعل بهم.

وعن أبى موسى رضى الله عنه - فيما رواه البخارى - قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم:

«مثل الذى يذكر الله - ربه - والذى لا يذكر الله مثل الحى والميت».

وعن عبد الله بن بسر - رضى الله عنه، فيما رواه الحاكم بإسناد صحيح - أن رجلاً قال: يا رسول الله: إن شرائع الإسلام قد كثرت على، فأخبرنى بشيء أتشبث به، قال:

«لا يزال لسانك رطباً من ذكر الله».

ويحدث الصحابي الجليل «معاذ بن جبل»، رضى الله عنه، فيقول،
فيما رواه الطبراني وغيره:

«إن آخر كلام فارقت عليه رسول الله، صلى الله عليه وسلم، أن قلت:
أى الأعمال أحب إلى الله؟

قال:

«أن تموت ولسانك رطب من ذكر الله»

والن أجل الوصايا التي أوصى بها رسول الله، صلى الله عليه وسلم،
وأنفسها - ووصاياه صلوات الله وسلامه عليه كلها جميلة نفيسة - وصيته
لأم أنس حينما قالت له: يا رسول الله: أوصني:

قال:

«اهجرى المعاصي، فإنها أفضل الهجرة، وحافظى على الفرائض، فإنها
أفضل الجهاد، وأكثرى من ذكر الله، فإنك لا تأتين بشيء أحب إليه من
كثرة ذكره».

وأن من السبعة الذين يظلمهم الله بظلمه يوم لا ظل إلا ظله:

«رجل ذكر الله خالياً ففاضت عيناه من خشية الله».

وروى البيهقي في الشعب من حديث عمر بن الخطاب أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: قال الله عز وجل:

«من شغله ذكرى عن مسألي، أعطيت أفضل ما أعطى السائلين».

قال الإمام الصاوي:

وينبغي للإنسان أن يذكر الله كثيراً، لقوله تعالى:

﴿وَالذَّاكِرِينَ اللَّهَ كَثِيرًا وَالذَّاكِرَاتِ. أَعَدَّ اللَّهُ لَهُمْ مَغْفِرَةً وَأَجْرًا عَظِيمًا﴾

ولا يلتفت لواش. ولا رقيب، لقول السيد الحفني خطاباً للعارف بالله تعالى أستاذنا الزهير:

يا منبغى طرق أهل الله والتسليك دع عنك أهل الهوى تسلّم من التشكيك
يا ذاكرني لرد المعترض يكفيك فاجعل سلاف الجلالة دائماً فيك

والشبلي - على غرار القوم - يهتم بالذكر اهتماماً بالغاً، وهو يقيم الاعتبار لذكر القلب، وفي ذلك يقول:

«ليس للأعمى من الجوهرة إلا لمسها».

«ولا للجاهل من الله إلا ذكره باللسان».

وسئل الشبلي عن أقرب أصحابه إليه، من يكون؟ فقال:

«أهيجهم بذكر الله، وأسرعهم مبادرة لرضاه».

ويعتبر الشبلى الذكر علاجاً، إن أبا حاتم الطبرى الصوفى يقول:

سمعت الشبلى يقول:

«ذكر الله على الصفاء، ينسى العبد مرارة البلاء».

والشبلى فى ذلك يتابع القرآن الكريم فى توجيهاته فى الذكر. يقول سبحانه وتعالى:

﴿فاصبر على ما يقولون، وسبح بحمد ربك قبل طلوع الشمس وقبل غروبها، ومن آناء الليل فسبح وأطراف النهار لعلك ترضى﴾.

ويقول سبحانه:

﴿قال اهبطا منها جميعاً، بعضكم لبعض عدو، فإذا يأتينكم منى هدى، فمن اتبع هداى فلا يضل ولا يشقى، ومن أعرض عن ذكرى فإن له معيشة ضنكاً، ونحشره يوم القيامة أعمى﴾.

ومع مكانة الذكر الكبرى فإنه، فيما يروى الشبلى:

«ليس من استأنس بالذكر، كمن استأنس بالمذكور».

وهذه الفكرة يكررها الشبلى فى صورة أخرى، فقد سئل:

متى تستريح من الذكر؟

فأجاب:

«إنى لا أستريح إلا إذا دخلت حضرة الشهود، لأنها لا ذكر فيها

استغناء عنه بالشهود، لأن الذكر إنما هو للغائب».

ويقول: إن الذكر إنما يكون مع الحجاب: لأنه دليل، فإذا شهد المدلول فقد سقط الوقوف عند الدليل، بل سقط عن شهود الدليل ومروره على الخاطر.

وإذا استغرق الإنسان في الذكر وجد حلاوته، وقاده الذكر إلى كثير من الأنوار والفيوضات، وما يقوده الذكر إليه:

الزهد:

ولقد سئل الشبلي عن الزهد فقال:

تحويل القلب من الأشياء إلى رب الأشياء.

وهذه الكلمة في إيجازها الدقيق تلخص موقف الصوفية في الزهد، إنها تسير في نسق مع قوله تعالى:

﴿لِكَيْ لَا تَأْسَوْا عَلَىٰ مَا فَاتَكُمْ وَلَا تَفْرَحُوا بِمَا آتَاكُمْ﴾.

وهي لا تعني عدم امتلاك الأشياء، وإنما تعني أن لا يتعلق القلب بها.

ولقد سبق أن قلنا غير مرة إن الزهد في الدنيا لا يعني التجرد المتعمد منها، وإنما يعني أن لا تستعبد الدنيا الإنسان، ولو كان الإسلام يبحث على التجرد من الدنيا، لما شرع نظام الزكاة، ونظام الزكاة هو أن تملك وتزكى

عما نملك، أى تخرج مما نملك ولما شرع الإسلام للبيع والشراء وكتابة الدين والميراث والصلح والمضاربة، وغير ذلك من أمور الثروة.

ولقد كان الكثير من الصوفية من الأغنياء يملكون الثروات ويتصرفون فيها كوكلاء لله عليها، وكثيراً ما يدعون الله بأن يغنيهم ولا يكتفون بذلك بل يدعونه - سبحانه - أن يجعلهم سبب الفنى لأوليائه.

ولقد كان من دعاء أبى الحسن الشاذلى فيما يتعلق بالدنيا مثله فى المال والثروة:

اللهم اجعلها فى أيدينا ولا تجعلها فى قلوبنا.

وكان من دعائه، رضى الله عنه:

اللهم وسع على رزقى فى دنيائى، ولا تحجبني بها عن أخراى.

ولقد كان الكثير من الصحابة رضوان الله عليهم من ذوى الثروات الضخمة، وكانت هذه الثروات فى أيديهم ولم تكن فى قلوبهم، وكانوا يذلونها سخية بها نفوسهم فى سبيل الله؛ فيجهز بعضهم جيش العسرة، ويحفر بئر رومة، ويتصدق آخرون فى سبيل الله بالعالى والنفيس، ويؤثرون الله على كل شىء.

ومن جميل ما نذكره فى ذلك، ما يتحدث عنه القرآن الكريم من آثار الاستغفار التى تعم الدنيا والآخرة، يقول تعالى:

﴿ويا قوم استغفروا ربكم ثم توبوا إليه يرسل السماء عليكم مدرارًا ويزدكم قوة إلى قوتكم﴾

ويقول:

﴿فقلت استغفروا ربكم إنه كان غفارًا، يرسل السماء عليكم مدرارًا، ويمددكم بأموال وبنين ويجعل لكم جنات ويجعل لكم أنهارًا﴾.

ويقول رسول الله، صلى الله عليه وسلم:

«من لزم الاستغفار جعل الله له من كل ضيق مخرجًا، ومن كل هم فرجًا، ورزقه من حيث لا يحتسب»^(١).

وعن أبي هريرة قال: قال رسول الله، صلى الله عليه وسلم:

«إني لأستغفر الله وأتوب إليه في اليوم أكثر من سبعين مرة»^(٢).

وما يذكر القرآن من آثار التقوى في مثل قول الله سبحانه:

﴿ولو أن أهل القرى آمنوا واتقوا لفتحنا عليهم بركات من السماء والأرض، ولكن كذبوا فأخذناهم بما كانوا يكسبون﴾.

وقوله:

﴿إن المتقين في جنات وعيون، آخذين ما آتاهم ربهم، إنهم كانوا قبل ذلك محسنين﴾.

(١) رواه أحمد وأبو داود وابن ماجه

(٢) رواه البخاري

وقوله:

﴿إِنَّهُ مَنْ يَتَّقِ وَيَصْبِرْ فَإِنَّ اللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ الْحَسَنِ﴾

وعن أنس، عن النبي صلى الله عليه وسلم، أنه قرأ:

﴿هُوَ أَهْلُ التَّقْوَى وَأَهْلُ الْمَغْفِرَةِ﴾.

قال: قال ربكم:

«أنا أهل أن أتقى، فمن اتقاني فأنا أهل أن أعفّر له^(١)»

والواقع أن الله سبحانه وتعالى لم يحتجب عن خلقه - كما يقول الشبلي - إنما الخلق احتجبوا عنه بحب الدنيا، أي باستعبادها لهم، وبجرهم وراءها وتكالبهم عليها..

وإن في الجنة درجات للفقى الشاكر:

وحينما يستغرق الإنسان في الذكر، تقوده أنواره إلى:

التوكل:

ويقول الشبلي عن التوكل:

«يقول أحدهم: توكلت على الله، وهو يكذب عليه، لو توكل عليه

رضى بقطعه».

(١) رواه الترمذي، وابن ماجه، والدارمي.

والواقع أن التوكل يشمل التسليم ويشمل التفويض:

والتوكل متضمن بصورة طبيعية في الإيمان الصادق بـ «لا إله إلا الله»، وهو - إذن - من صميم الإيمان:

ويقول الإمام سهل بن عبد الله التستري:

العمل سنة رسول الله، صلى الله عليه وسلم.

والتوكل، حاله صلى الله عليه وسلم.

فمن طعن في العمل فقد طعن في السنة.

ومن طعن في التوكل فقد طعن في الإيمان.

وكلمة سهل هذه إنما تعني أن العمل والتوكل متلازمان، وذلك أن رسول الله، صلى الله عليه وسلم، كان يعمل طيلة حياته: مكافحاً ومجاهداً، وهادياً ومرشداً، وكان لا يترك صغيرة ولا كبيرة إلا ودبر أمرها، وقدر لها ما يلزمها، وأحكم النظر فيها، وهو مع كل ذلك، في كل لحظة من لحظات حياته متوكل على الله تعالى، وهو، صلوات الله وسلامه عليه، القدوة والأسوة والمثل الأعلى لكل الصوفية:

ومن أنوار الذكر:

الخوف والرجاء:

ولقد سئل الشبلي عن الخوف، فقال:

أن تخاف أن يسلمك إليك.

وسئل عن الرجاء، فقال:

ترجو أن لا يقطع بك دونه

وإجابات الشبلي في ذلك، إجابات رباني، تعلق كيانه كله بالله تعالى.

ومن أنواع الذكر:

المحبة:

والآن نكتب عن صراط الأولياء، على حد تعبير الشبلي.

وصراط الأولياء: المحبة، إنها صراطهم الدائم حين يصلون إليها.

تلهج بها ألسنتهم، وتغتنق بها قلوبهم إلى آخر نفس من حياتهم.

والناس في العواطف درجات، ومنهم سلطان المحبين، ومنهم سلطان العاشقين.

ومهما جمع بالإنسان أمر الحب، ومهما كان سلطانه، فإنه في الأوضاع

الشرعية التي التزمها الصوفية له شروط وله علامات لن يتأتى أن يكون الحب يدونها.

وقبل أن نبدأ في الحديث عن المحبة عند الشبلي، نحب أن نقف وقفة

ضرورية في تصوير هذا الموضوع من كتاب الله وسنة رسوله، صلى الله عليه وسلم، ومن كلام علمائنا الأجلاء فيه.

يقول الله تعالى في حديث قدسى:

«من عادى لى ولياً فقد آذنته بالحرب، وما تقرب إلى عبدي بشيء أحب إلى مما افترضت عليه، وما يزال عبدي يتقرب إلى بالنوافل حتى أحبه، فإذا أحببته كنت سمعه الذى يسمع به، وبصره الذى يبصر به، ويده التى يبطش بها، ورجله التى يمشى بها، وإن سألنى أعطيته، ولن استعاذنى لأعيذه».

وفى هذا الحديث الشريف يبدأ الله سبحانه بالتوجيه فى قرة إلى صفاء القلب وطهارة النية بالنسبة لأوليائه...

أوليائه هم: ﴿الذين آمنوا وكانوا يتقون﴾.

ومن عاداهم فإنما يعادى: المؤمن التقى.

ونتيجة هذه العداوة ما يقوله الله تعالى:

«آذنته بالحرب»

ثم يرسم الله سبحانه الطريق إلى حبه: وأول خطوة فى هذا الطريق:

«أداء ما افترضته عليه».

ولن يتأتى حب الله سبحانه دون الشرط الأول - شرط القرب منه سبحانه - وهو أداء الفرائض.

والحب دون أداء الفرائض زيف وكذب، بل إن أداء الفرائض شرط لحسن الظن بالله..

لقد ترك قوم العمل وقالوا: نحن نحسن الظن بالله، وكذبوا كما يقول رسول الله، صلى الله عليه وسلم:

«لو أحسنوا الظن لأحسنوا العمل...»

لا بد من أداء الفرائض، وإلا لما كان لمهمها إلى القرب من الله تعالى من سبيل. ومع أداء الفرائض - في جو القرب - الإكثار من النوافل، فإذا أكثر من النوافل أحبه الله تعالى.

«وما يزال عبيدي يتقرب إلى بالنوافل حتى أحبه».

ويترتب على حب الله تعالى للعبد هذا الخير الكثير الذي ذكره الله، سبحانه وتعالى، في الحديث القدسي.

ويربط أسلافنا - رضوان الله عليهم - ربطاً محكمًا بين محبة الله سبحانه واتباع رسول الله، صلى الله عليه وسلم، متناسقين في ذلك مع توجيه الله سبحانه.

﴿قُلْ إِنْ كُنْتُمْ تُحِبُّونَ اللَّهَ فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللَّهُ﴾.

وهذا الربط معناه الربط بين محبة الله تعالى والعمل.

ومقدمات محبة الله تعالى - مع توفيقه - هي العمل، ومن نتائج محبة الله سبحانه: العمل.

يقول الإمام أبو سعيد الخزاز:

وبلغنا عن الحسن البصري رضى الله عنه أن ناساً قالوا على عهد رسول الله ، صلى الله عليه وسلم:

«يا رسول الله، إنا نحب ربنا حباً شديداً، فجعل الله تعالى لمحبهه علماً وأنزل عز وجل»:

﴿قُلْ إِنْ كُنْتُمْ تُحِبُّونَ اللَّهَ فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللَّهُ﴾.

فمن صدق المحبة اتباع رسول الله، صلى الله عليه وسلم، في هديه وزهده وأخلاقه، والتأسي به في الأمور، والإعراض عن الدنيا وزهرتها وسجتها، فإن الله عز وجل جعل محمداً، عليه الصلاة والسلام علماً ودليلاً وحجة على أمته.

ومن صدق المحبة لله تعالى إثبات محبة الله عز وجل في جميع الأمور على نفسك وهواك، وأن تبدأ في الأمور كلها بأمره قبل أمر نفسك، ويقول:

فعلاقة المحب الموافقة للمحبوب، والتجاري مع طرقاته في كل الأمور، والتقرب إليه بكل حيلة، والحرب من كل ما لا يعينه على مذهبه.

أما عن صلة المحبة بالإيمان، فإن الإمام الغزالي يقول:

«وقد جعل رسول الله، صلى الله عليه وسلم، الحب لله من شرط الإيمان

في أخبار كثيرة:

إذ قال أبو رزين العقيلي: يا رسول الله، ما الإيمان؟

قال: «أن يكون الله ورسوله أحب إليه مما سواهما».

وفي حديث آخر:

«لا يؤمن العبد حتى أكون أحب إليه من أهله وماله والناس أجمعين».

وفي رواية: ومن نفسه.

كيف وقد قال الله تعالى:

﴿قُلْ إِنْ كَانَ آبَاؤُكُمْ وَأَبْنَاؤُكُمْ وَإِخْوَانُكُمْ وَأَزْوَاجُكُمْ وَعَشِيرَتُكُمْ وَأَمْوَالٌ اقْتَرَفْتُمُوهَا، وَتِجَارَةٌ تَخْشَوْنَ كَسَادَهَا، وَمَسَاكِنُ تَرْضَوْنَهَا، أَحَبَّ إِلَيْكُمْ مِنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ وَجِهَادٍ فِي سَبِيلِهِ، فَتَرَبَّصُوا حَتَّى يَأْتِيَ اللَّهُ بِأَمْرِهِ، وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ﴾.

«وإنما أجرى ذلك في معرض التهديد والإنكار». اهـ.

ومن أجمل تعبيرات المحبين عن شعورهم، ما يقوله يحيى بن معاذ:

«إلهي إني مقيم بفنائك، مشغول بشنائك، صغيراً أخذتني إليك، وسربلتني بمعرفتك، وأمكنتني من لطفك، ونقلتني في الأحوال، وقبلتني في الأعمال: سترًا وتوبة، وزهدًا وشوقًا، ورضا وحبًا.. تسقيني من حياضك، وغلتي في رياضك، ملازمًا لأمرك، ومشغوفًا بقولك، وهاطر شارب، ولاح

طائري، فكيف أنصرف اليوم عنك كبيراً. وقد اعتدت هذا منك صغيراً.
فلى ما بقيت حولك دندنة، وبالضراعة إليك هممة، لأني محب، وكل محب
بحبيبه مشغوف، وعن غير حبيبه مضروب. اهـ

وبعد: فإن ثمرة محبة الله تعالى هي ما قاله سبحانه عن أوليائه:
﴿لَهُمُ الْبَشَرَى فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الْآخِرَةِ لَا تَبْدِيلَ لِكَلِمَاتِ اللَّهِ،
ذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ﴾.

وهي أيضاً أن يجد حلاوة الإيمان. يقول رسول الله، صلى الله عليه
وسلم: ثلاث من كن فيه وجد حلاوة الإيمان:

١ - أن يكون الله ورسوله أحب إليه مما سواهما.

٢ - وأن يحب المرء، لا يحبه إلا الله.

٣ - وأن يكره أن يعود في الكفر كما يكره أن يلقى في النار.

ولقد سمع الناس كثيراً عن عاطفة الحب الإلهي عند السيدة رابعة
العدوية رضي الله عنها، وسمعوا عن حب الإمام ابن الفارض، والإمام
البرعي.

ونحب أن نضع بجوار هؤلاء شخصية الإمام الشبلي!

وإذا كان الجم الغفير من الشعب الإسلامي قد أخذ فكرة عن الحب
عند بعض الصوفية، فإنه لم تتح له الفرصة لأخذ فكرة مستفيضة عن

الحب عند الشبلى، ولكن المؤرخين لحياة أبى بكر الشبلى يتحدثون عن حبه العميق وهيامه المستمر.. ومنهم، مثلاً، صاحب الحلية الذى يقول عنه: ومنهم المجتذب الوهان، والمستلب السكران، الوارد العطشان: اجتذب عن الكدور والأغيار، واستلب إلى الحضور والأنوار، وسقى بالدنان، وارتن ممتلاً ريان: أبو بكر الشهير بالشبلى.

وسيرى القارئ أن أسباب المحبة عنده، وأن ثمارها، وأن تعريقها، وكل ما يحيط بها منغمس فى جو من الاتباع لرسول الله، صلى الله عليه وسلم، وشعار من التزام الشريعة الغراء!

وهكذا يتخذ الصوفية الشريعة والافتداء برسول الله، صلى الله عليه وسلم، أساساً لكل تصرفاتهم.

أما عن أسبابها فإنها، فيما يرى الشبلى نتيجة «الهمة» والهمة عند الصوفية هى التشمير والجِد فى العبادة.

ويقول الشبلى:

«إن من ملت همته، ضعفت محبته».

فمع أهمة إذن صعوداً وهبوطاً تكون المحبة صعوداً وهبوطاً.

ولقد جلس عنده جمع من المريدين، فوجدهم غفلة لا يذكرون، فقال

فى حزن:

كفى حزنًا بالواله الصب أن يرى منازل من يهوى معطلة قفرًا

وسئل مرة عن أعجب شيء. فقال:

«من عرف الله ثم عصاه».

ولايسر المحب شيء أكثر من موافقة من يحب:

قال أبو القاسم عبد الله بن علي البصري: قال رجل للشبلي:

إلى ماذا تستريح قلوب المشتاقين؟ قال:

«إلى سرور من اشتاقوا إليه وموافقته». وأنشد:

أسر بهلكي فيه لآفي أسر بما يسر الألف جدا

ولو سئلت عظامي عن بلاها لأنكرت البلى وسمعت جحدا

ولو أخرجت من سقمي لنادي لمحب الشوق بي يسأله ردا

ولا بد للمحب من الأدب الكامل في القول، فضلا عن السلوك.

ويقول الشبلي:

الانبساط مع الحق بالقول ترك أدبا

والمحبة رقة للمحبيب، وإذا سألت عن الفرق بين رقة العبودية ورق

المحبة. فإن أحمد بن محمد بن عمران قال:

سمعت الشبلي - وسئل - فقل: ما الفرق بين رقة العبودية ورق

المحبة؟ فقال: كم بين عبد إذا أعتق صار حرًا، وعبد كلما أعتق ازداد رقًا.
ثم أنشأ يقول:

لتحشرون عظامي بعد إذ بليت يوم الحساب وفيها حيككم علق
وقد يسأل إنسان عن تعريف المحبة عند الشبلي ما هي؟
إنه يقول:

«المحبة اتباع أوامر المحبوب، وتجنب نواهيه، ومع ذلك فيجب الصدق
والإخلاص، وكنمان الحال مع بذل الجهد في المجاهدة، ثم بعد ذلك
لا توصل للمحبوب إلا بفضله:

﴿قل بفضل الله وبرحمته فبذلك فليفرحوا﴾.

ويقول محمد بن أحمد بن يعقوب الوراق: سمعت الشبلي.
وسئل عن المحبة، فقال: المحبة الفراغ للحبيب، وترك الاعتراض على
الرفيق.

ويقول الشبلي أيضاً:

المحبة كأس لها وهج، إن استقرت في الحواس قتلت، وإن سكنت في
النفوس أسكرت، فهي سكر في الظاهر، ومحبة في الباطن.
(٣٢ كواكب)

ولقد سئل الشبلي، هلي تظهر صحة الوجد على الواجدين؟

فقال: نوراً بمقارناً لنيران الاشتياق، فيلوح على الهيكل آثارها.
أما الأنس فإنه - كما يقول الشبلي وحشتك في جميع ما يقطعك عنه
واستغراقك فيه:

[٣٣ كواكب]

ويتحدث الشبلي بكلمة عن المحبة الكاملة، فيقول في عمق عميق:
المحبة الكاملة أن تحبه من قبله.

وكما كان الشبلي يعبر عن حبه وهيامه بذكره وتهجده، وقيامه وصيامه،
فإنه كان يعبر عن ذلك بقوله، وأكثر تعبيراته بالقول إنما كان بالشعر سواء
أكان من نظمه هو أم نظم غيره.

والآن نسوق مجموعة من تعبيراته بالشعر دون أن نلتزم فيها ترتيباً
معيناً، ونأسف إذا لم يصلنا كل ما قال في ذلك.

يقول أبو الفرج محمد بن عبيد الشاعر المعروف بالبارد:
سمعت الشبلي ينشد:

ليس تغلو جوارحي منك وقتاً	هي مشغولة بحمل هواك
ليس يجرى على لساني شيء	- علم الله ذا - سوى ذكراك
وثلث حيث كنت بعيني	فهي إن غبت أو حضرت تراك

[تاريخ بغداد ص ٣٩٠ - ٣٩١]

ويقول عبد الله بن موسى السلامي، سمعت الشبلي يقول:

ذكرتك لا أنى قسيتك لحنه	وأيسر ما في الذكر ذكر لسان
وكدت بلا وجد أموت من الهوى	وهام على القلب بالخفقان
فلما أراى الوجد أنك حاضرى	شهدتك موجوداً بكل مكان
فخاطبت موجوداً بكل تكلم	ولاحظت معلوماً بغير عيان

وحج، فلما رأى الكعبة أغمى عليه، ثم أنشد:

هذه دارهم وأنت محب ما بقاء الدموع في الآفاق

وقيل له: ما بال الرجل يسمع الشيء ولا يفهم معناه، فقال:

رُبَّ ورقاء هتوف في الضحى	ذات شجو صدحت في فتن
ذكرت إلفاً ودهراً صالحاً	فبكت حزناً وهاجت حزق
فبكائى ربما أرقها	وبكاهها ربما أرقنى
ولقد تشكو فما أفهمها	ولقد أشكو فما تفهمنى
غير أنى بالجووى أعرفها	وهى أيضاً بالجوى تعرفنى

وحكى الخطيب، في تاريخه، قال أبو الحسن التميمي:

دخلت على أبى بكر في داره يوماً وهو يهيج ويقول:

على بعدك لا يصبر	من عادته القرب
ولا يقوى على هجر	ك من تيممه الحب
فإن لم ترك العين	فقد يبصرك القلب

وذكر الخطيب أيضًا في ترجمة أبي سعيد إسماعيل بن علي الواعظ أن
أبا سعيد قال:

أنشدنا طاهر الخثعمي، قال: أنشدني الشبلي لنفسه:

مضت الشبيبة والحبيبة فانبرى دمعان في الأجفان يزدهجان
ما أنصفتني الحادثات رميته بمودعين وليس لي قلبان
[ض ٤٠: الوفيات]

وأخير أبو بكر أحمد بن علي بن يزداد القاري، قال: سمعت زيد بن
رفاعة الهاشمي قال: سمعت أبا بكر الشبلي ينشد في جامع المدينة يوم
الجمعة والناس حوله:

يقول خليلي كيف صبرك عنهم فقلت وهل صبر فيأل عن كيف
بقلبي هوى أذكي من النار حره وأصل من التقوى، وأمضى من السيف

وأنشد أبو بكر الرازي، ما أنشده الشبلي:

وإني وإياه لفي الحب صادق تموت بما نهوى جميعًا ولا نهدي
وقد جاء رجل إلى الشبلي فقال: كم تهلك نفسك بهذه الدعاوى ولا
تدعها؟ فأنشأ يقول متملاً:

إني وإن كنت قد أسأت بي اليو م لراج للعطف منك غداً

أستدفع الوقت بالرجاء وإن لم أر مثلك ما أرتجى أبداً
 أغرر نفسي بكم وأخذعها نفسي ترى الغي فيكم رشداً
 وكان عبد الله بن محمد الدمشقي يقول: كنت واقفاً على حلقة الشبل
 في جامع المدينة، فوقف سائل على حلقتي وجعل يقول:
 يا الله، يا جواداً فتأوه الشبلى وصاح، فقال:

كيف يمكنني أن أصف الحق بالجود، ومخلوق يقول في شكله:
 تعود بسط الكف حتى لو أنه ثناها لقبض لم تحبه أنامله
 تراه - إذا ما جنته - منهلاً كأنك تعطيه الذي أنت سائله
 ولو لم يكن في كفه غير روحه لجاد بها فليتنق الله سائله
 هو البحر من أي النواحي آتيته فلجته المعروف، والجود ساحله
 ثم بكى، وقال: بلى يا جوداً، فإنك أوجدت تلك الجوارح وبسطت تلك
 ألهم، ثم مننت - بعد ذلك - على أقوام يعز الاستغناء عنهم، وعما في
 أيديهم بك، فإنك الجواد كل الجواد، لأنهم يعطون عن محدود وعطاؤك
 لا حد له ولا صفة، فيا جواد يعلو كل جواد، وبه جاد كل من جاد!
 [٣٤١: السنلي]

وقال أبو القاسم عبد الله بن محمد: وكنت يوماً في حلقتي، فسمعت
 يقول: «الحق يفتي بما به يُبقي، ويُبقي بما به يُفتي».

[يُفتي بما فيه بقاء، ويبقي بما فيه فناء]، فإذا آفتي عبداً عن إياه أوصله

به، وأشرفه على أسرارهِ، وبكى وأنشد:

لها - في طرفها - لحظات سحر نمت بها وتحبى من تريد
وتسبى العالمين بقلتيها كأن العالمين لها عبيد
ألاحظها فتعلم ما بقلبي وألحظها فتعلم ما أريد
وبعد: فلقد تقرب الشبلى إلى الله تعالى - كما تقرب أئمة الصوفية -
بأداء الفرائض، وطرق باب المحبة - كما طرق بابها أئمة التصوف -
بالإكثار من التواقل.

وهذه الله ووقفه - كما هداهم ووفقهم - إلى السير على صراط
الأولياء: المحبة.

ثعار:

وانتهى الجهاد والمجاهدة بالشبلى - بتوفيق الله - إلى درجة من
الصفاء، أخذ يتحدث فيها عن أمور هي أثر لتجربته الشخصية.
وفي حديثه ما يدل على أنه وصل إلى التحقيق بتعريفه للتصوف من
قوله: «ونهايته توحيده»

يقول: محمد بن إبراهيم سمعت الشبلى يقول:

«وقفت بعرفة فطالبت الوقت، فما رأيت أحداً له في التوحيد نفس، ثم
رحمتهم فقلت: ياسيدى: إن منعتهم إرادتك فيهم، فلا تمنعهم مناهم منك!»

وتحدث الشبلى عن سمات الطريق، ومن ذلك ما يقوله أبو بكر أحمد
ابن يعقوب الوارف: سمعت أبا بكر الشبلى يقول:

«صاحب الهمة لا يشتغل بشيء، وصاحب الإرادة يشتغل بشيء!»

وقال: «الهمة لله، وما دونه ليس بهمة».

قال: وسمعتة يقول:

«ما ميزتموه بأوهامكم، وأدركنموه بعقولكم في أتم معانيكم، فهو مردود

إليكم محدث مصنوع».

وكان يقول:

«طرح العادات، وصول إلى الكرامات، ومن حقق رقه لمولاه،^١

استوحش بما سواه».

وقال:

«من عرف الله لا يكون له غم».

أما عن الوصول: فقد سمع الشبلى وهو يقول:

«الأرواح تلتفت، فتعلقت عند لذعات الحقيقة، فلم تر غير الحق

معبوداً يستحق العبادة، فأيقنت أن المحدث لا يدرك القديم بصفات

معلولة، فإذا صفاه الحق أوصله إليه!»

فيكون الحق أوصله إليه - لا وصل هوا

ويقول عمر البتاء المزوق البغدادي بمكة: سمعت الشبلي يقول:
« ليس من احتجب بالخلق عن الحق، كمن احتجب بالحق عن الخلق،
وليس من جذبته أنوار قدسه إلى أنسه، كمن جذبته أنوار رحمته إلى
مغفرته! ».

ولا يسعنا في نهاية الحديث عن تصوف الشبلي إلا أن نذكر هذه
الكلمات التي تعتبر شعوراً لكل سالك تذوق ووجد!

إنه يقول: « الفرح بالله أولى من الحزن بين يدي الله! »
وكان رضى الله عنه، يقول:

« قلوب أهل الحق طائفة إليه بأجنحة المعرفة، ومستبشرة إليه بمراعاة
المحبة! »

الفصل الرابع

التصوف والشرعة عند الشبلي

التصوف والشريعة

والتصوف عند الشبلى - وعند غيره من الصوفية - لا يتأق أن يقوم إلا على أساس من الشريعة. وللصوفية عن ذلك ما لا يحصى من التعاليم والنصائح والأوامر.

وقد كتبنا فى ذلك فصلاً مطولة فى كتاب «المتقذ من لضلال». والشبلى يوجز ذلك فى لمحات تبين منهجه وتوضح طريق الصوفية فى ذلك:

يقول المؤرخون عن الشبلى:

«وكان يبألف فى تعظيم الشرع المطهر»

وكان إذا دخل شهر رمضان المبارك جد فى الطاعات، ويقول:

«هذا شهر عظمه ربى. فأنا أقوم بتمطيه».

وكان الشبلى يقول:

كل صديق لا يكون له معجزة فهو كذاب!

فلما دخل دار العلاج، دخل الوزير عليه، فقال:

أين قولك:

«كل صديق بلا معجزة كذاب؟»

فأين معجزتك أنت؟ فقال:

«موافقة الله في أوامره ونواهيه».

وهذه الكلمة: «موافقة الله في أوامره ونواهيه»، هي شعار من شعارات الصوفية يحرصون عليه كل الحرص.

وكما قال سيدنا أبو بكر الصديق رضي الله عنه.

«لا آمن مكر الله ولو كانت إحدى قدمي في الجنة!»

فإن الشبلى يقول:

«لا تأمن على نفسك وإن مشيت على الماء حتى تخرج من دار الغرور إلى دار الأمن!»

وروى الحسين بن أحمد الصفار، قال: سئل الشبلى - وأنا حاضر - أي شيء أعجب؟ قال:

«قلب عرف ربه ثم عصاه».

ولشدة تمسك الشبلى بالشرعة، كان بعض الصالحين يراه في الرؤيا كما يروى السلمى - ولسانه يلهج بالتمسك بالشرعة. ومن ذلك أن محمد بن الحسين بن الخشاب يقول:

سمعت بعض أصحاب الشبلي يقول:

رأيت الشبلي في المنام، فقلت له:

يا أبا بكر: من أسعد أصحابك بصحبتك؟

فقال:

أعظمهم لحرمان الله، وألهمهم بذكر الله، وأقومهم بحق الله، وأسرعهم
مبادرة في إرضاء الله وأعرفهم بنقصانه، وأكثرهم تعظيماً لما عظم الله من
حرمة عبادته.

وسئل الشبلي عن كمال العقل، وكمال المعرفة، فقال:

«إذا كنت قائماً بما أمرت، تاركا لتكلف ما كفيت، فأنت كامل العقل،
وإذا كنت بالله متعلقاً لا بأعمالك، غير ناظر إلى سواء، فأنت كامل
المعرفة»

ويقول محمد بن علي بن حبيش:

أدخل الشبلي دار المرض ليعالج. فدخل عليه علي بن عيسى الوزير
عائداً، فأقبل علي الوزير، فقال: ما فعل ربك؟

فقال الوزير:

في السماء يقضى ويغضى.

فقال :

سألتك عن الرب الذي تعبد، لا عن الرب الذي لا تعبد - يريد
الخليفة المقتدر - فقال على لبعض حاضريه: ناظره.

فقال الرجل:

يا أبا بكر، سمعتك تقول في صحتك:

«كل صديق بلا معجزة كذاب»، وأنت صديق فما معجزتك؟

قال:

معجزتي أن تعرض خاطري في حال صحوى على خاطري في حال
سكري، فلا يخرجان عن موافقة الله تعالى!



الفصل الخامس

متنثرات

من الحكم والمواعظ والطرائف

متنثرات من الحكم والمواعظ والطرائف

يقول صاحب الكواكب:

ومن كلامه وحكمه التي وشحها بألفاظه وأقلامه، ونضد عقودها بأحكام
أحكامه، وملأ بجيوشها صدور مهامه، قال:

«لا يكمل فقير حتى تستوى حالاته بهفراً وحضراً وغيبة ومشهداً». والفقير في لغته هو الصوفي، لأنه في كل أوقاته وأحواله فقير إلى الله تعالى.

وقال:

«وقفت بعرفة فطالبت الناس بما يجب من الحضور، والإجلال، فرأيت
الغالب عليهم التقصير، فرحمتهم وقلت:

«إلهي إن منعتهم إرادتك فيهم، فلا تمنعهم مناهم منك». اهـ.

ويقول أبو الحسن بن سميعون، قال لى الشيلي:

كنت باليمن وكان بباب دار الأمير رحبة عظيمة، وفيها خلق كثير قيام

ينظرون إلى منظره - فإذا قد ظهر من المنظره شخص أخرج يده كالمسلم عليهم، فسجدوا كلهم، فلما كان بعد سنين كنت بالشام، وإذا تلك اليد قد اشتريت لهما بدرهم وحملته، فقلت له:

أنت ذلك الرجل؟

قال: نعم. من رأى ذاك ورأى هذا يغتر بالدنيا؟

وقال:

ألا شجاً بحتين! ألا رقة بأئين من قلب قريح حزين! ألا شارب بكأس العارفين! ألا غارق في بحار المحبين! ألا هائم في ميدان العاشقين. ألا منته من رقة. يا مسكين ستقدم فتعلم، سيكشف لك الغطاء فتندم، كيف بك وقد كشف الغطاء، ونجلى الجليل لفصل القضاء، يا مسكين لم تبكى وتضح؟

دع المعاصي فتستريح، لم هذا الإبطاء، ولم هذا الانتحاب، قف في الدياجي على الباب! وكان يقول - في صورة رمزية -

«إنما تصفر الشمس عند الغروب، لأنها عزلت من مكان التمام، فاصفرت لخوف المقام، وهكذا المؤمن إذا قارب خروجه من الدنيا اصفر لونه، فإنه يخاف المقام، وإذا طلعت الشمس طلعت مضيئة منيرة، كذلك المؤمن إذا خرج من قبره خرج ووجهه مشرق مضيء».

وكان، رضى الله عنه، يقول:

«ما ظنك بشمس، الشموس كلها فيها ظلمة».

وقال:

«الوفاء: الإخلاص في النطق، واستغراق السرائر بالصدق».

ويقول:

«الحرية هي حرية القلب لا غير».

وقال: «الإفلاس يأنس، الاستئناس بالناس».

وقال: «الزم الوحدة، وامح اسمك من القوم، والزم الجدار حتى تموت».

وقال:

«أهل اليلاء أهل الغفلة عن الله».

وقال:

«ضحية الأشرار تورث سوء الظن بالأخيار».

وقال:

«رفع الله العباد على قدر علو همهم، فلو أجرى على الأولياء ذرة

بما أجراه على الأنبياء ذابوا وتقطعوا».

وقال:

«كل صديق ليس له كرامة فهو كذاب».

وكان أبو بكر الدينوري، خادم الشبلي، يقول: سمعت الشبلي يقول

قبل موته:

«على درهم واحد مظلمة ظلمته يوم ولايتي، وقد تصدقت عن صاحبه

بألف، وما على قلبي أعظم منه».

وكان إذا دخل عليه فقير يقول له:

أعندك خبراً أو عندك أثر؟ ثم ينشد:

أسائل عن ليلي فهل من مخبر يخبرنا علماً بها أين تنزل؟

ثم يقول:

«وعزتك وجلالك ما غيرك في الدارين مخبر».

وقال:

«مر بي بهلول المجنون وهو خارج إلى المقابر، ومعه قصبة جعلها فرسه

وبنده مقرعة وهو يعدو، فقلت: إلى أين؟ فقال:

إلى العرض على الله، فجلست حتى رجع، وقد انكسرت القصبة،

واحترت عيناه من البكاء، قلت له:

ما كان منك؟ قال:

وقفت بين يديه على أن يكتبني من الخدام. فلما عرفني طردني.

وجاءه نصراني فأسلم، فقال:

ما سبب إسلامك؟

قال: كنت حال النصرانية أكرم دين النصرانية، فرزقت دين الإسلام ببركة إكرامى ذلك الدين.. فصاح الشبلى وقال:

إذا كان من يكرم الدين الباطل يرزقه الله الدين الحق، فمن يكرم الدين الحق لا يرزقه الله الرحمة والمغفرة؟

وقال:

«لو كان لى فى يوم القيامة أمر لسألت الله أن يملأ جهنم منى وحدى، لئلا يبقى فيها متسع لغيرى، لأفدى بعض أمة محمد، فرأى فى نومه الله يقول:

أما تستحي أن تقول ما قلت...؟ إن كنت تتكرم على خلقى بما يضرك، فأنا خالق الكرم، وأولى أن أتكرم عليهم بما لا يضرنى.
فقلت: وعزتك قد هُتت، قلم أدر ما أقول.

وجاءه رجل فقال: أى الصبر أشد؟ قال: الصبر فى الله؟

قال: لا. قال: فالصبر مع الله؟ قال: لا. قال: فالصبر لله؟
قال: لا.

قال: فأى شيء؟ قال: الصبر عن الله، فصرخ الشبلى صرخة «كادت
روحه أن تخرج»، ثم أنشد:
الصبر يحمل في المواطن كلها إلا عليك فإنه لا يحمل
ولقد كان الشبلى كثيراً ما يتمثل بهذين البيتين:

والهجر لو سكن الجنان تحولت نعم الجنان على العبيد جحياً
والوصل لو سكن الجحيم تحولت حر السعير على العباد نعيماً

وكان يقول:
ليس للمريد فترة، ولا للعارف علاقة، ولا للمحب شكوى،
ولا للصادق دعوى، ولا للخائف قرار، ولا للخلق من الله فرار.

وقال:
«ليس من احتجب بالخلق عن الحق، كمن احتجب بالحق عن الخلق،
وليس من جذبته أنوار قدسه إلى أنسه، كمن جذبته أنوار رحمته إلى
مغفرته».

ويقول:

«العارف لا يكون بكلام غيره لافظاً، ولا للغير لاحفظاً، ولا يرى غير
الله حافظاً».

ورئى خارجاً من مسجد يوم عيد وهو يقول:

إذا ما كنت لى عيداً فما أصنع بالعيد؟
جـرى حبك فى قلبى كجـرى الماء فى العود

وقيل له: العيد قد أقبل، والناس يتزينون، وأنت هكذا؟!

فقال: زينة الفقير (الصوفى) فقره، وصبره على فقره.

وفى العيد أيضاً يقول:

فقلت: خلعة ساقى حبة جرعا	قالوا: أفى العيد ماذا أنت لابسه
قلب يرى إلفه الأعياد والجمعا	فقر وضربها شوباي تحتها
والعيد ما كنت لى مرأى ومستمعا	الدهر لى ماتم إن غبت ما أملى
يوم التزاور فى الثوب الذى خلعا	أخرى الملايس ما تلقى الحبيب به

وقد سمع أحمد بن محمد بن مقسم الشيلي يقول:

«نظرت فى ذل كل ذى ذل فزاد ذلى عليهم!

ونظرت فى عز كل ذى عز فزاد عزى عليهم!

فإذا عزهم ذل فى عزى!

وتلا فى إثره: «من كان يريد العزة، فله العزة جميعاً».

وكان يقول:

من اعترى بذى العز، فذل العز له عز.

وقال:

أظلت علينا منك يوماً غمامة
فلا غيمها يحلو فينس طامع
أضاء لها برق وأبطار شاسها
ولا غيثها يأتى فيروى عطاشها

وقال رجل للشبلى: ادع الله لى، فأنشأ يقول:

مضى زمن والناس يستشفعون بى
فهل لى إلى ليلى الغداة شفيحاً

وكان ينشد فى محله:

الغيب رطب ينادى
فقلت: أهلاً وسهلاً
يا غافلين الصبح
مادام فى الجسم روح

ويقول:

قيل لى مجنون ليلى فرضيت، ثم أنشد:

قالوا جنت على ليلى فقلت لهم
الحب أيسره ما بالمجانين

ثم أنشد وقال:

جنا على ليلى وجنت بغيرنا
وأخرى بنا مجنونة لا نريدها

ثم أنشد:

ولو قلت طأفى النار بادرت نحوها
سرورا لأنى قد خطرت ببالكا

ثم أنشد:

سألهم للصبر ثوباً جميلاً
وأدرج ليلى ليلاً طويلاً

وأصبر بالرغم لا بالرضا أعلل نفسي قليلاً قليلاً
ثم أنشد وقال:

قالوا تنقب وزر فقلت لهم أشهر ما كنت حين أنتقب
إن عرفوني وأتبسوا صفى أصبحت درا والدر ينتهب
ولقد سئل الشبل عن قول بعضهم:

«لا تغرنكم هذه القبور، وهدووها، فكم من فرح مسرور، وداع بالويل
والثبور!»

فقالوا: أيما هي القبور عندك؟ قبور الأموات؟

قال: لا!! بل أنتم القبور، كل واحد منكم مدفون، فالمعرض عن الله داع
بالويل والثبور، والمقبل على الله الفرح المسرور.

ثم أنشأ يقول:

قبور الورى تحت التراب وللورى رجال لهم تحت الثياب قبور
فقلت له: يا سيدى: وتعد في الموتى؟ فقال:

يحبك قلبى ما حييت فإن أمت يحبك عظم فى التراب رميم
وسأله سائل: هل يتحقق العارف بما يبدو له؟ فقال:

«كيف يتحقق بما لا يثبت!».

وكيف يطمئن إلى مالا يظهر!.

«وكيف يأنس بما يخفى!»

«فهو الظاهر الباطن، والباطن الظاهر!». ثم أنشأ يقول:

فمن كان في طول الهوى ذاق سلوة فإني من ليل لها غير ذائق
وأكثر شيء نلته من وصاها أمانى لم تصدق كلمحة سارق

وقال رجل للشبلي: هل شاهدته أحد بحقيقته؟ فقال:

«الحقيقة بعيدة، ولكن ظنون، وأمانى وحسبان». وأنشد:

وكذبت طرفي فيك والطرف صادق وأسمعت أذني منك ما ليس تسمع
ولم أسكن الأرض التي تسكنونها لكيلا يقولوا: إني بك مولع
فلا كبدي تهدأ ولالك رحمة ولا عنك إقصاء ولا فيك مطمع

فإذا ترامى له تحقيق حال، شوشه بالتلبيس والأشكال!

وكثيرا ما كان الشبلي ينشد:

ودادكم هجر وحكم قلى ووصلكم حرم وسلمكم حرب

وكان ينشد كثيرا أيضا:

لما بدا طالعا غابت لهيبته شمس النهار ولم يطلع لنا قمر

وقال أبو نظر الطوسي:

سمعت الحضري يقول: سمعت الشبلي يقول:

«أعمى الله بصراً يراني. ولا يرى في آثار القدرة، فأنا أحد آثار القدرة، وأحد شواهد العزة. لقد ذلت حتى عزّ في ذلي كل ذل، وعززت حتى ما تعزز أحد إلا بي، أو بمن تعززت به، وما افترقنا، وكيف نفرق ولم يجر علينا حال الجمع أبداً؟».

وقيل للشبلي: متى يكون الشخص مريداً؟

قال:

إذا استوت حالاته في السفر والحضر، والمشهد والمغيب؟».

الفصل السادس

تقدير الشبلي

تقديره

لقد استفاض الكثيرون في الثناء عليه، خصوصاً أصحاب الطبقات، ومن ذلك ما يقوله صاحب «الكواكب الدرية»، إنه يقول:

إمام اشتهر شرفه، وسمت في جنان المعرفة غرفه، وأضاء كوكب زهده
وديانته، ونما فرع ورعه وضيانته!

ويقول أيضاً: «صار أوحده وقته: علماً وحالاً».

وقال العروسي في «حاشية الرسالة القشيرية» عن الشبلي:

فكان لا نظير له في مجاهداته ومعاملاته لربه، وفي كياسته وحذقه وذكاء
قربحه، وتنبيهه على مكملات الرجوع إلى الحق باستحلال الخلق، وإن
تحقق الخلو من حقوقهم اتهاماً للنفس بالذهول والتقصير..

ويقول عنه الإمام الشعرائي:

«.. صار أوحده أهل الوقت علماً وظرفاً».

ولقد مشى الشبلي يوماً إلى أن جاء إلى مسجد أبي بكر بن مجاهد،
فدخل على أبي بكر، فقام إليه أبو بكر فتحدث أصحاب ابن مجاهد

بحديثها، وقالوا لأبي بكر: أنت لم تقم لعلى بن عيسى الوزير، وتقوم للشيلي؟

فقال أبو بكر: ألا أقوم لمن يعظمه رسول الله، صلى الله عليه وسلم!... رأيت النبي، صلى الله عليه وسلم، في النوم فقال لي:

يا أبا بكر إذا كان في غد فسيدخل عليك رجل من أهل الجنة، فإذا جاءك فأكرمه! - قال ابن مجاهد: فلما كان بعد ذلك بثلاثين أو أكثر، رأيت النبي، صلى الله عليه وسلم، في المنام، فقال لي:

يا أبا بكر أكرمك الله كما أكرمت رجلاً من أهل الجنة، فقلت يا رسول الله! بما استحق الشيلي هذا منك؟ فقال:

هذا رجل يصلي كل يوم خمس صلوات، يذكرني في إثر كل صلاة،
ويقراء:

﴿لقد جاءكم رسول من أنفسكم، عزيز عليه ما عنتم، حريص عليكم بالمؤمنين رؤوف رحيم﴾.

﴿إن تولوا فقل: حسبى الله لا إله إلا هو عليه توكلت وهو رب العرش العظيم﴾... أفلا أكرم من يفعل هذا؟

ولقد ذكرنا أيضاً خلال ما كتبناه من فصول بعض ما أتى به على الشيلي.

تقديره

لقد استفاض الكثيرون في الثناء عليه، خصوصاً أصحاب الطبقات، ومن ذلك ما يقوله صاحب «الكواكب الدرية»، إنه يقول:

إمام اشتهر شرفه، وسمت في جنان المعرفة غرفه، وأضاء كوكب زهده
وذيائته، وما قرع ودرعه وصيائته!

ويقول أيضاً: «صار أوجد وقته: علماً وحالاً».

وقال العروسي في «حاشية الرسالة القشيرية» عن الشبلي:
فكان لا نظير له في مجاهداته ومعاملاته لربه، وفي كياسته وحذقه وذكاء
قريحته، وتنبهه على مكملات الرجوع إلى الحق باستحلال الخلق، وإن
تحقق الخلو من حقوقهم اتهاماً للنفس بالذهول والتقصير..

ويقول عنه الإمام الشعراي:

«... صار أوجد أهل الوقت علماً وحالاً وظرفاً».

ولقد مشى الشبلي يوماً إلى أن جاء إلى مسجد أبي بكر بن مجاهد،
فدخل على أبي بكر، فقام إليه أبو بكر فتحدث أصحاب ابن مجاهد

بحديثها، وقالوا لأبي بكر: أنت لم تقم لعلى بن عيسى الوزير، ونقوم
للسبيل؟

فقال أبو بكر: ألا أقوم لمن يعظمه رسول الله، صلى الله عليه وسلم!...
رأيت النبي، صلى الله عليه وسلم، في النوم فقال لى:

يا أبا بكر إذا كان في غد فسيدخل عليك رجل من أهل الجنة، فإذا
جاءك فاكرمه! - قال ابن مجاهد: فلما كان بعد ذلك بثلاثين أو أكثر، رأيت
النبي، صلى الله عليه وسلم، في المنام، فقال لى:

يا أبا بكر أكرمك الله كما أكرمت رجلاً من أهل الجنة، فقلت
يا رسول الله! بما استحق السبيل هذا منك؟ فقال:

هذا رجل يصلى كل يوم خمس صلوات، يذكرنى في إثر كل صلاة،
ويقراً:

﴿لقد جاءكم رسول من أنفسكم، عزيز عليه ما عنتم، حريص
عليكم بالمؤمنين رؤوف رحيم﴾.

﴿فإن تولوا فقل: حسبي الله لا إله إلا هو عليه توكلت وهو رب
العرش العظيم﴾... أفلا أكرم من يفعل هذا؟

ولقد ذكرنا أيضاً خلال ما كتبناه من فصول بعض ما أثنى به على
السبيل.

ويقول صاحب الكامل في التاريخ:

أحد مشايخ الصوفية الكبار... ولى خاله إمرة الإسكندرية، وولى أبوه
حجاية الحجاب، وولى هو حجاية الموفق ولى العهد.

وسبب توبته أنه حضر مجلس «خير النساء» فسمعه يعظ، فوقع في
قلبه كلامه: فتأب من فوره.

وصحب الجنيد ومن في عصره، وصار أحد مشايخ الوقت حالاً وقالاً...

الفصل السابع

وفاته

بتهياً أن يقال لرجل لم يذهب عليه تحليل لحيته في الوضوء عند نزوع
روحه، وأمسك لسائه وعرق جبينه؟

وفي ليلة وفاته أخذ السبيل يذكر تارة، وتارة يردد هذين البيتين:

كل بيت أنت ساكنه غير محتاج إلى السرج
وجهك المأمول حجتنا يوم تأتي الناس بالحجج
رحمه الله رحمة واسعة. وجزاه خير ما يجزى الصالحين.

خاتمة

حينما تحدثنا عن حياة الشبلي تحدثنا عن علمه، والجهد الكبير الذى بذله فى سبيل تحصيل العلم، حتى لقد قال عنه صاحب الشذرات: «كان الشبلي فقيهاً عالماً، كتب الحديث الكثير».

ويقول هو عن نفسه:

«كتبت الحديث عشرين سنة، وجمعت الفقهاء عشرين سنة».

ووصل الأمر بالشبلي إلى أن أصبح صاحب حلقة يدرس فيها، ويلتف فيها من حوله العلماء والفقهاء:

وموضوع العلم عند الصوفية أمر يهمه كثير من الكاتبيين، ربما كان السر فى ذلك أن الأمر أظهر من أن يعقد له الإنسان فصلاً أو يؤلف فيه كتاباً، ولكن النتيجة لذلك كانت أن بعض الناس ظن أن الصوفية ليست لهم صلة وثيقة بالعلم، وتمثلوا الأمر على غرار ما يرونه الآن من بعض من ينتسبون إلى التصوف زوراً، وليس لهم نصيب من العلم..

ونحن إذا كنا قد كتبنا من قبل عن وجوب تفقه الصوفية، خصوصاً من يحتل منهم مركز الإرشاد - فى العلم - فإننا الآن أيضاً نطالب بهذا، ونحن

نكتب عن عالم من كبار العلماء.

وما من شك في أنه لا يتأتى أن يكون الإنسان صوفي ما لم يأخذ من العلم نصيباً يمكنه من تصحيح دينه: عقيدة وعبادة وسلوكاً.

أما كبار الصوفية فهم كبار العلماء.

ونحب أن نذكر من ذلك أمثلة لما يمارون في انتساب الصوفية للعلم، وتعمقهم فيه، وقبل أن نبدأ في ذكر هذه النماذج نقول:

إن جميع من ذكرهم صاحب حلية الأولياء من الصوفية في كتابه البالغ أكثر من أربعة آلاف صحيفة، كلهم من العلماء، وما ذكره صاحب كتاب الكواكب الدرية من الصوفية الذين يعدون بالمثات، كلهم من العلماء.

والواقع أن العلم في الدائرة الصوفية هو العلم بمعناه الإسلامى، أى العلم بالطبيعة، والعلم بما وراء الطبيعة: إنه العلم بالأخلاق وبالفضيلة، وهو العلم بالنواميس الإلهية السارية في الكون التى يكتشفها علم التشريع، أو علم الطبيعة، أو علم الفلك، أو غير ذلك.

وإذا كانت الحقيقة تسفر عن قناعها بالأمثلة، فإننا نبدأ بن قال عنه القشيري:

«سيد هذه الطائفة وإمامهم».

إنه الجنيد:

لقد كان فقيهاً يفتى في حلقة أستاذه وبحضرته وهو ابن عشرين سنة،
وتأمل ما قاله القدماء عن درسه:

لقد كان الكتبة (الأدباء) يحضرون مجلسه لألفاظه.

وكان الفقهاء يحضرون مجلسه لتقريره.

والفلاسفة يحضرون مجلسه لدقة نظره ومعانيه.

أما المتكلمون فكانوا يحضرون مجلسه لتحقيقه.

وكان الصوفية من قبل هؤلاء ومن بعدهم يحضرون مجلسه لإشارته
وحقائقه.

ولقد حضر أبو الحسين علي بن إبراهيم الحداد يوماً مجلس القاضي
أبي العباس بن شريح، فسمعه يتكلم في الفروع والأصول، (أى فى علم
الفقه، وفى علم التوحيد)، بكلام حسن.

ويقول أبو الحسن. فعجبت منه، فلما رأى إعجابى قال: أتدرى من أين
هذا؟

قلت: يقول به القاضي.

فقال: هذا ببركة مجالسة أبي القاسم الجنيد.

أما علم الجنيد نفسه، فقد جاهد في سبيل تحصيله السنين الطوال عن
طريق الدرس والتحصيل، وكان هذا الطريق الجانب الكسبي من علمه.

أما الجانب الوهبي، فإنه سئل من أين استفدت هذا العلم؟ فقال: من
جلوسى بين يدى الله ثلاثين سنة تحت تلك الدرجة.
وأوماً إلى درجة في داره.

وقد حفظ الجنيد القرآن، وفهمه، ودرسه، وتدبره، وقيد الحديث
واستوعبه قدر الاستطاعة لفظاً ومعنى، رواية ودراية. وذلك أنه يرى -
كما يرى غيره من الصوفية - أن ذلك هو الأساس، ولا بد من إحكام
الأساس.

وإحكام هذا الأساس يجعل من أحكامه فقيهاً، ويجعله محدثاً، ويجعله
مفسراً، ويجعله من علماء التوحيد.

ولقد أحكم الجنيد هذا الأساس قدر الاستطاعة:

أحكامه تعبداً، وأحكامه استنارة، وأحكامه لأنه صوفي، وقال فيها رواه
القشيري:

«من لم يحفظ القرآن، ولم يكتب الحديث لا يقتدى به في هذا الشأن،
لأن علمنا هذا مقيد بالكتاب والسنة».

ونقد كرر الجنيد، رضى الله عنه، هذا المعنى حتى ثبت في أذهان
الصوفية، يروى البروذباري عن الجنيد أنه قال:

«مذهبنا مقيد بأصول الكتاب والسنة».

ويروى القشيري أيضاً عن الجنيد أنه قال:

«علمنا هذا مشيد بحديث رسول الله، صلى الله عليه وسلم».

وبكفى أن يتصفح الإنسان رسائل الجنيد، رضى الله عنه، ليشعر أنه إمام عالم من أئمة علماء المسلمين.

والجنيد، رضى الله عنه، مثال للصوفي على ما ينبغي أن يكون، ولم يكن الجنيد بدعاً في عالم الصوفية، فأستاده الحارث بن أسد المحاسبي لم يكن في زمانه نظير له في علمه..

ومؤلفاته كثيرة متنوعة، وكلها في مستوى سام، حتى لقد كانت من المصادر الرئيسية التي أفادت الإمام الغزالي وأثرت فيه.

وكتاب الرعاية للمحاسبي، كتاب أديب، عالم حجة، وكتابه: فهم القرآن - بحسب ما وصلنا منه من نصوص - كتاب الباحث الدقيق، الذي يتخذ القرآن والسنة أساساً، ويتطلق منها إلى إضاءة جو العقائد، رداً على المبتدعة والمثرفين.

ولقد حاول ذو النون المصري من قبل الجنيد، أن يكتشف من معميات الكون، ماخفى على الكثيرين:

لقد كانت له جولات في عالم الكيمياء، وأسرار الطبيعة، ولقد حاول أن يكتشف أسرار علم قدماء المصريين، وأن يقرأ كتاباتهم، ويتفهم لغتهم، لقد كان يجب اكتناه الغامض، ومحاولة أن يزيل القناع عن المحجوب، فضلاً

عن شعاره الدائم، وهو القرآن الكريم، وسنة رسول رب العالمين.
وهل أتاك نبأ الإمام القشيري، وأنه فر القرآن، كما يفسره هذا وذاك
من علماء اللغة، وعلماء أسباب النزول، وعلماء النحو والبلاغة. ولم يكن
أقل من أي منهم في علمهم وفهمهم.

وأنه لم يكتف بذلك، وإنما ألف في تفسير القرآن: لطائف الإشارات،
فكان إلهاماً من الإلهامات، وكان نوراً من الأنوار، ولم يذكر فيه كل
الإشارات، وإنما ذكر لطائفها.

ولقد خاض الإمام الغزالي بحار العلم، وانغمس فيها، ويعبر عن ذلك
بقوله:

«ولم أزل في عتفوان شبابي - منذ راهقت البلوغ، قبل بلوغ العشرين
إلى الآن، وقد أناف السن على الخمسين - اقتحم لجة هذا البحر العميق،
وأخوض غمرته خوض الجسور، لا خوض الجبان الحذور، أتوغل في كل
مظلمة، وأتهجم على كل مشكلة، وأقتحم كل ورطة، وأنفحص عن عقيدة
كل فرقة، وأستكشف أسرار مذهب كل طائفة، لأميز بين محق ومبطل،
ومتسنن، ومبدع، لأغادر باطنياً إلا وأحب أن أطلع على بطائنه.

ولا ظاهرياً إلا وأريد أن أعلم حاصل ظهارته.

ولا فلسفياً إلا وأقصد الوقوف على كنه فلسفته.

ولا متكلماً إلا وأجتهد في الإطلاع على غاية كلامه وبجاليته.

ولا صوفياً إلا وأحرص على العثور على سر صوفيته.
ولا متعبداً إلا وأترصد ما يرجع إليه خاضل عبادته.
ولا زنديقاً معطلاً إلا وأتحسس وراءه للتنبيه لأسباب جرأته في تعطيله
وزندقته.

وقد كان التعطش إلى درك حقائق الأمور دأبى ودينى، من أول أمرى،
وربعان عمرى، غريزة وفطرة من الله، وضعتا في جبلتى لباختياري
وحيلتى، حتى انحلت عنى رابطة التقليد، وانكسرت على العقائد الموروثة،
على قرب عهد سن الصبا» اهـ.

أما الذى طوع مختلف العلوم، وامتلكت ناصية المعرفة على مختلف
فروعها، ووصل فيها على القمة: لم يحاره فى ذلك فيلسوف من فلاسفة
الشرق، ولم يحاره فى ذلك فيلسوف من فلاسفة الغرب فإنه:

الشيخ الأكبر، سيدنا محيى الدين.

لقد طوع المعرفة لفكره، وطوعها لقلمه، وبلغ فيها القمة، وبحق سمي
الشيخ الأكبر، ولقد كان فى فتوحاته مقسراً خيراً من كثير من المفسرين،
وفقيهاً خيراً من كثير من الفقهاء، وشارحاً للحديث خيراً من كثير من
شراحه، وفتوحاته كنز من المعرفة لا ينفد، ومعين من العلم لا ينضب. إنه
رشفة من بحار رسول الله، صلى الله عليه وسلم، تتسم دائماً بنضرة منبعها.

والصوفية في الجانب العلمى لا يكتفون بالجانب الكسبى: أى جانب
التعليم من الكتب، وعلى أساتذة الكتب، ولكنهم قرأوا في كتاب الله تعالى:
﴿وعلمناه من لدنا علماً﴾.

فتعلقت آمالهم بهذا العلم الآتى مباشرة من الله، وتطلعت أمانيتهم إلى
هذا العلم الذى هو من عند الله، واتخذوا الطريق إليه.

والطريق إليه رسمه الله سبحانه وتعالى في كتابه العزيز، وعلى لسان
رسوله الكريم، إنه الجهاد فى سبيل الله:

﴿والذين جاهدوا فىنا لنهدينهم سبلنا﴾

وهو العمل بما علموا:

«من عمل بما علم، ورثه الله علم ما لم يعلم».

وهو تحقيق العبودية لله سبحانه وتعالى، ومن حقق العبودية لله كان الله
سمعه وبصره:

«كنت سمعه الذى يسمع به، وبصره الذى يبصر به».

وشعار الصوفية على وجه العموم فيما يتعلق بالعلم، هو شعار أستاذهم
وقدوتهم وحبيبهم رسول الله، صلى الله عليه وسلم، الذى كان شعاره:
﴿رب زدنى علماً﴾.

وإذا كان أهل الظاهر قد فرحوا بعلمهم الظاهر، واكتفوا به، فإن

الصوفية قد حصلوا هذا العلم ولكنهم لم يكتفوا به، لقد شاركوا علماء
الظاهر في علمهم، ولكن علماء الظاهر لم يشاركوهم إلهاماتهم وإشراقاتهم؛
هل نذكر في هذا المجال الإمام الغزالي في علمه الظاهر، وفي علمه
الباطن؟

هل نذكر القطب الكبير أبا الحسن الشاذلي، أو القطب الكبير أحمد
الرفاعي، أو القطب الكبير عبد القادر الجيلاني في علمهم الظاهر، وفي
علمهم الباطن؟

والشعراني الذي ساهم تقريباً في جميع فروع المعرفة الدينية، أنساه في
هذا المجال؟ إن التصوف والعلم يؤلفان وحدة متحدة منذ أن نشأ التصوف.

وفي ختام هذا الموضوع ننقل قول صاحب اللمع:

ثم إن طبقات الصوفية أيضاً اتفقوا مع الفقهاء، وأصحاب الحديث في
معتقداتهم، وقبلوا علومهم، ولم يخالفوهم في معانيهم ورسومهم، إذا كان ذلك
مجانباً للبدع واتباع الهوى، ومنوطاً بالأسوة والاعتداء، وشاركوهم بالقبول
والموافقة في جميع علومهم.

ومن لم يبلغ من الصوفية مراتب الفقهاء وأصحاب الحديث في الدراية
والفهم، ولم يحط بما أحاطوا به علماً، فإنهم راجعون إليهم في الوقت الذي
يشكل عليهم حكم من الأحكام الشرعية، أوحد من حدود الدين، فإذا
اجتمعوا فهم في جملة ما فيها اجتمعوا عليه، فإذا اختلفوا فاستحباب

الصوفية في مذهبهم الأخذ بالأحسن والأولى والأتم احتياطاً للدين، وتعظيماً لما أمر الله به عباده، واجتناباً لما نهاهم الله عنه.

وليس من مذهبهم النزول على الرخص، وطلب التأويلات، والميل إلى الترفه والسعات، وركوب الشبهات، لأن ذلك تهاون بالدين، وتخلف عن الاحتياط، وإنما مذهبهم التمسك بالأولى والأتم في أمر الدين، فهذا الذي عرفنا من مذاهب الصوفية ورسومهم في استعمال العلوم الظاهرة، المبدولة والمتداولة بين طبقات الفقهاء وأصحاب الحديث.

ثم إنهم من بعد ذلك ارتقوا إلى درجات عالية، وتعلقوا بأحوال شريفة، ومنازل رفيعة، من أنواع العبادات، وحقائق الطاعات، والأخلاق الجميلة، ولهم في معاني ذلك تخصيص لغيرهم من العلماء والفقهاء وأصحاب الحديث.

* * *

فهرس الكتاب

الصفحة

٥	من دعاء الشبلى
٧	مقدمة
١١	الفصل الأول: حياته
٣٥	الفصل الثانى: الشبلى وتعريف بالتصوف
٥٣	الفصل الثالث: الطريق الصوفى عند الشبلى
٩١	الفصل الرابع: التصوف والشرىعة عند الشبلى
٩٧	الفصل الخامس: متناثرات من الحكم والمواعظ والطرائف
١٠٩	الفصل السادس: تقدير الشبلى
١١٣	الفصل السابع: وفاته
١١٧	خاتمة

AL-MOSTAFA.COM